

العثمانيون والأوروبيون في القرن السادس عشر

شمس الدين الكيلاني

يمكن اعتبار القرن السادس عشر مفترقاً تاريخياً، انطلاقاً منه سيتقرر مآل توزيع القوى على طرفي العالم القديم، وفيه ستقع أشد المعارك البرية، والبحرية هولاً، والتي ستتوقف على نتائجها مواقع الأطراف المتجابهة: الشرق الإسلامي - العربي، والأوروبي المسيحي.

إمبراطوريتان، سيغطي عراكهما مسرح أحداث القرن السادس عشر: الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وعلى رأسها شارل الخامس، ومن بعده ابنه فيليب الثاني، والإمبراطورية العثمانية بقيادة سليمان القانوني. ستتجابه الدولتان في البر والبحر، وكل منهما تقدم نفسها كحام لدين وحضارة. هكذا شكّلا بحق طرفي التناقض في معادلات الصراع الحضاري - السياسي في فاتحة العصر الحديث.

في أوروبا سيؤول أمر (الإمبراطورية الرومانية المقدسة)، في مقبيل القرن السادس عشر، إلى شارل الخامس وريث إيزابيلا وفرديناند، مما مهد للاتحاد بين إسبانيا والنمسا - ألمانيا، وجعل من الممكن القيام بسياسة قوة عالمية حقيقية.

لقد جمع شارل تحت سطوته: إسبانيا راعية كولمبس، والنمسا

(*) فصل من بحث تحت الطبع بعنوان «الإسلام وأوروبا المسيحية».

وألمانيا، والقسم الأكبر من إيطاليا، وصقلية، وناپولي، والأراضي المنخفضة، ومستعمرات ما وراء البحار، وما كان بحوزته من الشريط الساحلي للمغرب العربي، قبل أن يظهره العثمانيون، فاكسب بذلك سطوة جبارة جعلته يحتل موقع السيد في القارة الأوروبية. بحيث أصيب بالضيق كل من البابا ليون العاشر، وفرنسوا الأول، وهنري الثامن، وحكام البندقية نتيجة تمركز تلك القوة الهائلة بيد رجل واحد في القارة.

وحده فرنسوا الأول عاهل فرنسا سينازع الإمبراطور شارل السيادة على أوروبا، في وقت كانت فيه القوى الأوروبية الأخرى متشاغلة عن ذلك: فالبابوية غارقة في خوفها من العثمانيين، وتنافسها مع البندقية، ومجابهتها الانشقاقات الكنسية، والبرتغاليون منشغلون بمغامراتهم البحرية الكبرى لتطويق دار الإسلام والبحث عن ثروات الشرق، وهنري الثامن منكفئ على مشاكل الإصلاح الديني التي أثارها في إنجلترا، إلا أن هذا لم يمنعهم من إظهار ضيقهم بطموحات شارل لتوحيد أوروبا، وأن يجعل من التاج الذي يلبسه تاجاً للعالم المسيحي⁽¹⁾.

جهود إمبراطورية شارل لتوحيد العالم المسيحي، ستجابه سياسياً بشكل رئيسي من فرنسا، وسيهدد وحدة بنائها الاجتماعي - السياسي والمذهبي، الإصلاح الديني البروتستانتي. ذلك الإصلاح الذي امتزج في ألمانيا، ودول شمال أوروبا باللون القومي، وقد وضع ذلك أوروبا على دروب الحروب الأهلية لأكثر من مائة وخمسين عاماً.

فمنذ أن خسر فرنسوا الأول، أمام شارل الخامس، معركة انتخابه للعرش الإمبراطوري «بدأت المنافسة المريعة التي جعلت غرب أوروبا يعج

(1) يقول ه. ج. ويلز: «وانضم هنري الثامن والبابا، عملاً منهما بقواعد الاستراتيجية الماكيافيلية إلى جانب فرنسا عند ذاك لمنع شارل من أن يصل إلى حد بالغ من القوة» معالم تاريخ الإنسانية، عبد العزيز جاوید، المجلد الثالث، الكتاب السابع، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ط 1، القاهرة، 1950، ص 843.

بالاضطرابات، وكان موضوع الحرب من هو سيد أوروبا، شارل أو فرنسيس، فأجاب الأتراك بل سليمان⁽¹⁾. هذا التنافس الكبير بين أسرتي آل فالو الفرنسية، والهابسبورغ الإمبراطورية، على زعامة أوروبا، بشكل عام، وعلى السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية بشكل خاص «أربك شارل الخامس أمام حركة الهرطقة في ألمانيا، التي وجدت ترحيباً من فرنسوا الأول⁽²⁾ ومن سليمان القانوني. فكان للصراع مع فرنسوا والانقسام الديني دورهما الفعال في إحباط جهود شارل لتوحيد أوروبا كمقدمة لتصفية حساباته مع سليمان القانوني، إن كان على جبهة المغرب العربي، أو جبهة المتوسط، أو جبهة البلقان. ف وراء الصرح الإمبراطوري كانت أوروبا، في العمق، تعاني التمزق والفرقة مع ظهور نويات الدولة القومية، والتمزق الديني - السياسي المتمثل بالإصلاح البروتستانتي الذي حطم هيبة الكنيسة الكاثوليكية⁽³⁾. ففي السنة التي فتح فيها سليم الأول مصر عام 1517، علق (لوثر) بنوده الخمسة والتسعين على باب كنيسة فيتنبرغ wittenberg مهاجماً البابوية بأقذع النعوت، مما زاد في تمزق أوروبا المسيحية، وكان سليمان القانوني جاهزاً لاقتناص الفرصة، فمد يد العون لفرنسوا الأول، وللحركات الانشقاقية عن كنيسة روما، وقد شجع فرنسوا بدوره العثمانيين للاتصال بحلفائه البروتستانت في ألمانيا «ولا شك أن الضغط العثماني حوّل اهتمام آل هابسبورغ عن الانشقاق، مما وطد الإصلاح الديني في أوروبا»⁽⁴⁾.

- (1) روسلان موسينيه، بإشراف: موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، ترجمة: يوسف أسعد داغر، فريد. م. داغر، منشورات عويدات، بيروت 1966، ص 552.
- (2) هيربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، د. زينب عصمت راشد، د. عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص 18.
- (3) يقول د. جلال يحيى: «لقد تفتت الوحدة المسيحية، تحت تأثير حركة الإصلاح الديني، فالمسيحية لم تعد إلا فيما يتعلق بعلاقاتها مع الإسلام، سوى مجرد كلمة، وإن ما يهم وحده بعد ذلك، هي هذه الدول العديدة المختلفة، التي أصبحت تقسم المجتمع المسيحي «تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة»، دار المعارف بمصر 1982، ص 13.
- (4) د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ط 1، مكتبة أطلس، دمشق 1974، ص 81.

في القرن السادس عشر، كان الإسلام ما يزال محصناً وقوياً، كان زمن أسرة المغول الزاهية في دلهي (1556 - 1707) التي تربطها علاقات طيبة مع العثمانيين، وزمن الصفويين في فارس، الذين تبادلوا الفرقة والعداوة مع العثمانيين، إلا أنه كان لعهدهم زهوه الثقافي المشهود. وكانت حقبة نهضة (الدولة العثمانية) التي تبوأ موقع الزعامة للعالم الإسلامي، تفوقت من حيث الاتساع والقوة والنفوذ والغنى والمكانة العالمية، على خصمها في الطرف الآخر: الإمبراطورية الرومانية المقدسة. فواردات الدولة العثمانية تعادل ضعفي واردات إمبراطورية شارل الخامس: فقد كان السلطان سليمان القانوني ولا شك في ذلك، أغنى ملوك أوروبا، يتناول من رعاياه المسلمين العشر، ومن المسيحيين، ممن يخضع لسلطته، رسم الخراج: وهناك رسوم تفرض على الأملاك والعقارات، سواء أكان أصحابها مسلمين أم نصارى. كذلك كانت تصل إلى خزانة الدولة واردة المكوس، وغير ذلك «فلا عجب أن تبلغ واردات السلطان سليمان من الأموال ضعفي ما كان يدخل خزانة الإمبراطور شارل الخامس»⁽¹⁾. وإن القوة والمهابة التي تمتع بها سليمان، وإمبراطوريته من ورائه لا تضاهيها أية قوة في عصره، ولا حتى قوة شارل الخامس. «فعندما حاول هذا الأخير التماس الصلح من سليمان بعد /فيينا/، رفض طلبه على الفور»⁽²⁾.

وسطوة الدولة العثمانية ومهابتها ووزنها العالمي مشهود، إلى الدرجة التي ترقع فيها العثمانيون عن تنصيب سفراء لهم في العواصم الأخرى، على أساس أنهم في غنى عن سائر الدول، وظلت هذه التقاليد متبعة حتى السلطان محمود الثاني في مطلع القرن التاسع عشر⁽³⁾، وبالمقابل فسفراء الدول

(1) روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 547.

(2) هارولد لامب، سليمان القانوني، شكري محمود نديم، شركة النبراس - بغداد 1961، ص 149.

(3) راجع: محمد جميل بيهم، العرب والترك والصراع بين الشرق والغرب، دار النشر (مغل) 1907، ص 106.

الأخرى، يُفرض عليهم تقديم هدايا ثمينة، هي بمثابة جزية، قبل مثلهم أمام السلطان القانوني، وهو يأنف من الارتباط بمعاهدات مع ملوك النصارى، وهو يفضل بدلاً عنها - كما يقول شوفاليه - منح «الامتيازات»، لاعتقاده أن إلغائها هو حق له يتصرف به متى شاء⁽¹⁾.

وقد أجبر سليمان «الإمبراطورية الرومانية» أن تدفع صاغرة الجزية له. وهو وإن لم يستطع الاستيلاء على فيينا، فإنه فرض الجزية على الأرشيديوق فرديناند (الأخ الأصغر للإمبراطور وملك النمسا)⁽²⁾. وفي صلح براغ (1562) اعترف الإمبراطور فرديناند، الذي خلف شارل، بحكم سليمان للمجر ومولدافيا وتعهده بدفع جزية سنوية له⁽³⁾ وعندما منع الإمبراطور مكسيميليان الثاني (= خَلَف فرديناند) الجزية عن العثمانيين، حمل سليمان عليه عام 1566 وأجبره على دفعها مجدداً⁽⁴⁾، وكما قال ديورانت: «لم يقدر الأباطرة المحافظة على السلام مع تركيا إلاّ بدفع جزية سنوية للسلطين حتى عام 1606»⁽⁵⁾.

مثلت مرحلة السلطين العشرة الأوائل العظام (1299 - 1566) حقبة الصعود والازدهار في التاريخ العثماني، وقد كان عهد سليمان القانوني (1520 - 1566)، وهو آخر هؤلاء العشرة الأوائل العظام، العهد الأكثر زهواً والأشدّ ازدهاراً واستقراراً ومناعة وقوة، في هذه الحقبة، ففي عهده «أصبحت الدولة

(1) راجع: مصدر سابق، ص 107، ويقول الدكتور جلال يحيى: «بينما كانت البندقية وإسبانيا وفرنسا ممثلة بشكل دائم في القسطنطينية، كانت البعثات العثمانية لدى هذه الدول المسيحية مؤقتة واستثنائية». تاريخ العلاقات الدولية... مصدر سابق، ص 27.

(2) راجع: ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، محمد صبحي فرزات، مكتبة الدراسات الإسلامية، مطبعة الملاح، دمشق 74، ص 477.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، جزء خامس، مجلد سادس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، ص 128.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص 128.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد السابع، جامعة الدول العربية، ص 171.

العثمانية الأقوى بحرياً في المتوسط، والأشد ازدهاراً⁽¹⁾.

وبما أن ازدهار الدولة العثمانية وغناها، قد ارتبطا إلى حد كبير (بالتوسع) الذي يجلب المال (الخراج والجزية) والموارد البشرية للجند (ضريبة الدم) لرفد الانكشارية، فسيسهل هذا مع الزمن، اندماج فكرة الجهاد وروحها العقيدية، مع المصالح المادية لتقدم الدولة ورفاهها، وسيقوي من الطابع العسكري لها. وستظل هذه الدولة، حتى عهد سليمان متمسكةً بفكرة العثمانيين القديمة «وهي أن الأمة يجب أن تنتظم للحرب، ولذلك فإن جميع الموظفين في جهاز الحكم كانوا يحملون رتباً في الجيش، ما عدا بعد السكرتيريين»⁽²⁾.

ولأن كل شيء سُخر (للجهاد)، ولدعم المؤسسة العسكرية، أداة هذا الجهاد، انتظمت الحياة العسكرية، في ظل العثمانيين، لهذا الغرض: الجهاد، ولهذه القوة الضاربة: الجيش. لذا، فقد أخذت الدولة العثمانية في وقت مبكر جداً بالنظام الإقطاعي - العسكري، وكان هدف هذا النظام الرئيسي توفير أسباب العيش لفئات مختلفة من الجند بدلاً من النفقة عليهم⁽³⁾ وقد ساعد الإقطاع الحربي على التوسع في زراعة مساحة شاسعة من الأراضي، كما وقر للدولة في أوقات الحرب قوات الفرسان (التي كانت تبلغ أحياناً مائتي ألف) دون تحمل أي نفقات، كما خلصها من مرتبات العسكريين في كل الأوقات⁽⁴⁾. ولقد ساهم افتقاد الفضة في هذا الخيار⁽⁵⁾ كما ارتبط هذا بحاجات مجتمع أخذ في التوسع على حساب (دار

(1) د. خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص 17.

(2) هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص 86.

(3) هاملتون جب، هارولد بون، المجتمع الإسلامي والغرب، الجزء الأول، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ص 67.

(4) راجع: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة، ط 2، 1993، ص 119.

(5) مصدر سابق، ص 118.

الكفر⁽¹⁾. ولم يكن هذا النظام اختراعاً عثمانياً، فإن منح الإقطاعات لرجال محاربين قد ظهر مع انحلال الخلافة العباسية، وإن يكن طابعه - في ظل النظام العثماني - قد اقترب «من ذلك الذي اتخذه في عصر السلاجقة»⁽²⁾. فكانت الحكومة العثمانية تطلب الخدمة العسكرية مقابل منح الإقطاعات وقد أنشأت الغالبية العظمى من هذه الإقطاعات لإعالة الفرسان (السباهية) وهذه الإقطاعات تسمى: تيمار، وزعامات، تبعاً لقيمة الإيراد الذي تدره⁽³⁾ أما الإقطاعات التي يفوق عائدها عائد الزعامات فتعرف باسم: خاص، وبعض الإقطاعات من هذا النوع - وهي أكبرها جميعاً - فهي ملك خاص للسلطان فتسمى: خاص همايون⁽⁴⁾.

ويتولى كبار ضباط السباهي حكم الولايات. وكان واجب السباهية أن يخرجوا إلى الحرب عندما يُدعون إليها لقاء الإيرادات التي يتمتعون بها، والتي تُجبي من العشور والرسوم التي تُفرض على الفلاحين⁽⁵⁾.

ومؤسسة (الإقطاع العسكري) هذه تختلف جذرياً عن الفيوالية الأوروبية

(1) مصدر سابق، ص 138.

(2) هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، مصدر سابق، ص 68. راجع أيضاً: ز. ي. هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، مصطفى الحسين، دار الحقيقة، بيروت 1973، ص 18. حيث يقول هرشلاغ: «لم يبدأ منح الإقطاعات مقابل الخدمة العسكرية إلا في سنة 1087م، في ظل الأتراك السلاجقة، على يد رئيس الوزراء نظام الملك». ويؤكد محمد فؤاد كوبريلي على هذه الحقيقة عندما يقول: «لقد احتفظ العثمانيون بمبدأ كان مُتبعاً أيام السلاجقة يقضي بأن تقسم الأراضي المفتوحة إلى إقطاعات تعطى أقلها للسباهية لقاء خدماتهم العسكرية، وتعطى أحسنها: زعامات، أو خاص، للقادة الأكبر مركزاً، بشرط أن يسلحوا عدداً من الجند يتناسب مع إقطاعاتهم» قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السيد سليمان، دار الكاتب العربي، بدون تاريخ، ص 189 - 190.

(3) هاملتون جب... المجتمع الإسلامي والغرب، الجزء الأول، مصدر سابق، ص 69.

(4) المصدر السابق، ص 70، راجع أيضاً: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نبيه فارس، منير بعلبكي، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت 1965، ص 458 - 459.

(5) هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، مصدر سابق، ص 67.

«فقد كانت الفيودالية الأوروبية، ومؤسساتها الحقوقية ترتكز على ملكية الأرض، أما نظام (الإقطاع العسكري) فقد ارتكز على التبعية للدولة لا للسيد مالك الأرض. وكان الإقطاع (العسكري) يؤدي وظيفة للدولة مقابل حيازة مؤقتة للأرض»⁽¹⁾.

وهكذا، تبوأ الجيش مكاناً بالغ الأهمية في الدولة، فعلاوة على مهنة الحرب كذراع مسلح للدولة، وما اتخذته من مواقع في سلم الجهاز الإداري والسياسي، فهو احتل وظيفة المنظم للإنتاج الزراعي، والقباض على فائضه. فكان الفرسان (السباهية) يربطون داخل (تيماراتهم)، وتعرف كل منطقة يديرونها بـ (السنجق) أو اللواء، مما يظهر الوجه العسكري الحربي لهذه الإدارية الإنتاجية، فتحشد الوحدات العسكرية عند نشوب حرب ما تحت راية (سنجق بك) أي (بك السنجق)، الذي يقود المنطقة أو السنجق، ويدير في الوقت نفسه شؤون فرسان السنجق⁽²⁾.

لقد ورث (سليمان القانوني) بالإضافة لنظام السباهي، وفرقة الفرسان السباهية، فرقة المشاة الإنكشارية، التي كانت خيرة فرق الجيش العثماني، التي كانت حصيلة (ضريبة الدم) المفروضة على مواليد الرعايا المسيحيين. إذ كان يأخذ أعداداً نسبة من الأحداث المسيحيين ويخضعهم لتربية إسلامية متشددة، ثم ينخرطون في فرقة الإنكشارية محترفين، ويحظر عليهم الزواج، أو تملك الأرض، أو تعاطي التجارة، أو أية مهنة أخرى. فكان أهم ما يشغل بالهم، وخاصة الأوائل منهم، الجهاد والمحافظة على نظام السلطنة. وقد ارتبط بأوجاقاتهم الدراويش على الطريقة البكداشية... فعُرف الإنكشارية باسم الجندية البكداشية، وقد قام تنظيمهم على نمطٍ مشابه لتنظيم الأخويات الدينية

(1) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، د. عفيف البستاني، دار التقدم، موسكو،

1971، ص 11، راجع أيضاً، الفضل شلق، تاريخ المجتمعات الإسلامية، قراءة في كتاب أ. لايدوس، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون، والسابع والعشرون، سنة سابعة، 1995.

(2) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، مصدر سابق، ص 25، راجع أيضاً: ز. ي.

هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، مصدر سابق، ص 1973.

الإسلامية⁽¹⁾. وكما يشير (جب): لما كانت الفتوحات العثمانية الأولى قامت بدوافع دينية، فإن الكثير ممن قاموا بها كانوا أعضاء في (الأخويات الدينية). من هنا فإن فرقة الإنكشارية قد تأسست قبل أن يحدث الانشقاق والتمايز بين عقائد السلاطين وعقائد رعايها المسلمين، أو بين الدولة والمجتمع الأهلي⁽²⁾.

حتى عهد سليمان القانوني، ظلت الروح الجهادية الكفاحية، والنزعة (الأخوية) عاملاً مؤثراً على أداء الدولة، وعلى مؤسساتها العسكرية، وفي مقدمتها الفرقة الإنكشارية. لذا، فإننا نجد، كما يقول بروكلمان: «أن جميع المصادر الأوروبية حافلة بإطراء روح النظام التي تكشف عنها الجيش العثماني، فلم يكن فيها مكان للخمر أو القمار، أو البغاء، وهي آفات لم تسلم منها في يوم من الأيام جيوش أوروبا لذلك العهد»⁽³⁾.

وتجمع المصادر الأوروبية على تفوق العسكرية العثمانية بالمقارنة مع مثيلاتها الأوروبية: نظاماً، وتسليحاً، وحشداً، حتى عهد سليمان. فكان أول جيش محترف في العالم، في وقت كان يسود فيه نظام الارتزاق على الجندية الأوروبية. حيث يسود في أوروبا نوع من (السوق) الدولية للجنود، يمكن لكل أمير أن يتزود منه، وكان أحسنهم السويسريون يليهم الألمان⁽⁴⁾ فامتلك العثمانيون الجيش الثابت الوحيد الذي له اعتبار في أوروبا... وكانت منشآت السلاطين العسكرية في المدفعية والشؤون الهندسية والإمدادات والتموين فوق مستوى عصرهم⁽⁵⁾.

(1) راجع: هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، الجزء الأول، مصدر سابق، ص 93 - 94. راجع أيضاً: عمر رضا كحالة، مباحث اجتماعية في عالمي العرب والإسلام، مطبعة الحجاز بدمشق، 1974، ص 319 - 324.

(2) راجع: هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، المصدر السابق، ص 86. راجع أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص 29.

(3) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص 468.

(4) راجع د. جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص 21.

(5) هريوت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي، مصدر سابق، ص 21.

ولا شك، أن العثمانيين - كما يشير إلى ذلك إيفانوف - في أواخر القرن الخامس عشر، ومطلع القرن السادس عشر، احتلوا موقع الطليعة بين جيوش العالم، وكانوا باعتراف الجميع «يملكون أفضل مدفعية في العالم، فكانت الأكثر إتقاناً من الناحية التكنيكية، إن لجهة عياراتها، أو لدقة التصويب فيها، وشملت مدفعية الحصار الثقيلة، ومدفعية الميدان، والمدفعية النقالة... واقرنت التقنية العسكرية المتقدمة لديهم بالانضباط الصارم، والتنظيم الدقيق»⁽¹⁾.

وقد برهن رجال الجيش العثماني على مقدرة وكفاءة بالغين، وظلوا يعيرون الانتباه إلى أي كشف أو اختراع حربي جديد يحققه الأوروبيون، ليدمجوه في آلتهم العسكرية الجبارة «مما أمن لهم التفوق الحربي، فقد كانوا أول من استعمل على نطاق واسع، الأسلحة النارية والمدفعية»⁽²⁾. وسيحافظ العثمانيون على تفوق مدفيعتهم حتى القرن السابع عشر، هذا التفوق الذي تأكد في عهد (محمد الفاتح)، الذي أمطر القسطنطينية أثناء حصاره لها عام 1453، «بأكبر قصف مدفعي عرفه التاريخ، وقد قال أحد مؤرخي اليونان، منذ أن خُلق العالم لم يسمع شيء مماثل على ضفاف البوسفور»⁽³⁾.

واستقدم العثمانيون، من أوروبا، كل ما هم بحاجة إليه من المدافع والمعادن والبارود، والإخصائين، كعمال النسيج، وبناء السفن، والبحارة العاملين في صب المدافع، وفي أعمال الحديد، وصناعة الأسلحة، وراسمي الخرائط، وكان أول ما يهتم الأتراك فعله بعد فوزهم في معركة، وضع أيديهم على الفنيين بين الأسرى⁽⁴⁾.

(1) نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، يوسف عطا الله، الفارابي، بيروت 1988، ص 263.

(2) روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 549.

(3) الجنرال ج.ف.ث. فولر، أثر التسلح في التاريخ، دار اليقظة العربية، 1954، ص 81. راجع أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص 90.

(4) روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 549.

أمسك سليمان بمصير (ديار الإسلام) في فترة التبدلات التاريخية الكبرى، التي سيشهدها العالم، بدءاً من القرن السادس عشر، حيث سترسى الأسس الجغرافية - التاريخية لمشهد العالم الحديث. ولتبدل مواقع القوى الحضارية المختلفة فيه. وحاول سليمان ما أمكنه ذلك القبض على مصائر (ديار الإسلام)، إن لم نقل مصائر العالم القديم - المتوسطي برمته.

وكانت الآن في حوزته أشد مدن العالم القديم ازدهاراً وصيتاً: بابل، نينوى، بغداد، دمشق، القاهرة، إنطاكية، طرطوس، أزمير، مكة، بيت المقدس. وكان في حوزته حوض البحر الأسود، فتحكم في مصبات الدانوب، والدنيبر، والدنيستر. فرقد خلف سليمان الطرق المائية التي تحمل التجارة من آسيا الغربية، وأمامه فيما وراء القلاع الحجرية للدردنيل، البحر الإيجي المتركشي بالجزر، التي أصبحت الآن عثمانية، بعد أن كانت قبلاً يونانية. وهو بعد أن قبض على (رودس)، في شرق المتوسط، بدأ ينازع الأسبان على غرب هذا البحر، وعلى شبه الجزيرة الإيطالية. ودانت له البلقان حتى غدت (فيينا) نقطة الحدود مع الغرب، وما كان يفصله سوى قفزة واحدة عبر الأدرياتيكى لتصبح إيطاليا البابوية في متناول يديه. وهو بعد أن اخترق أوروبا من وسطها أصبحت روما، العاصمة البابوية، وفيينا العاصمة الإمبراطورية، مهددتان بشكل جدي. ولكن ذهنه ظل مشدوداً إلى غرب المتوسط، وإلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد كان على اتفاق مع (بربروسا)، إنه بعد أن يهيئ القواعد اللازمة لأساطيله في شمال إفريقيا، بعد تحريرها من الإسبان، عليه الانقضاض على إسبانيا لاسترجاع الأندلس، وليضرب هناك مركز الخطر الأكبر الذي غدا يهدد العالم الإسلامي الآن، حيث يندفع الإسبان والبرتغاليون بأساطيلهم لتطويق (ديار الإسلام) من الأطلسي مروراً، مصادفة، بأمريكا، أو عبر الرجاء الصالح، يحدوهما هدف واحد هو الوصول إلى البحار الهندية للسيطرة على (التجارة الشرقية) وإضعاف (بلاد المسلمين). وكان يشد أزره حلفاؤه خانات القرم يحمون شمال البحر الأسود، ويطرصدون العدوان القادم من الروس، وهو على علاقة وطيدة مع أباطرة (الهند) المسلمين في (دهلي)، الذين مدّ لهم يد المساعدة لمواجهة الخطر البرتغالي البحري. فوجد

(الجبهة الإسلامية) من (كلكتوتا) حتى غرب المتوسط، وما عاد يؤرقه إلا موقف الفرس - الصفويين المعادي، فلم يستطع الوصول إلى وفاق معهم، ووقفت وعورة الجبال، والمسافة الشاسعة، حائلاً بينه وبين القضاء عليهم.

وكان لهذا الانقسام العثماني - الفارسي دوره الكبير في إحباط خطط العثمانيين لمواجهة أوروبا المسيحية، والتقدم على حسابها. فبقي العالم الإسلامي تنقصه الوحدة، في أخطر الظروف التاريخية من عام 1508 لغاية 1638، فأفاد العالم الأوروبي - المسيحي من هذه الفرقة، حيث سيضطر سليمان القانوني لقطع هجماته على الغرب، من أجل مواجهة الخطر على الجبهة الفارسية. وفي ذلك كتب سفير فرديناند (ملك النمسا) في القسطنطينية بحق: «إن فارس هي التي تقف حائلاً بيننا وبين الدمار»⁽¹⁾.

وإذا كان سليمان قد مدَّ يده إلى فرنسوا الأول لمحاربة الإمبراطورية المقدسة، فإن شارل الخامس، رأس هذه الإمبراطورية، سيمد، بدوره، اليد إلى فارس الصفوية «وفيما بين عامي (1525 و 1545) عاود شارل المفاوضات مع فارس المرة بعد المرة، بافتراض التنسيق بين المسيحيين والفرس للوقوف في وجه سليمان»⁽²⁾.

وقد أجمع الصفويون حدة الخلاف المذهبي داخل الصف الإسلامي، بالإضافة إلى ما فعلوه على الصعيد السياسي: «فقبل إعادة تنظيم المذهب الشيعي على أيدي صفويي إيران خلال القرن السادس عشر لم يكن التمييز واضحاً بين معتقدات كل من المذهبين: السني والشيعي»⁽³⁾.

وكانت الدولة المسيحية مستعدةً للإفادة من مثل هذا العداء. فكما كانت فرنسا، في عهد ملوك أسرة (لافالوا) تسعى للتحالف مع العثمانيين، لكي تطوق بهم أسرة هابسبورغ من الخلف، كانت أسرة هابسبورغ تحاول عقد

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص 94.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص 95.

(3) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص 15.

علاقات مع الإيرانيين لكي تجبر العثمانيين على البقاء بدون حركة ضدها في آسيا. ومن عام (1518) قام الملك لويس الثاني عشر، ملك المجر، بالكتابة إلى (الصفوي) الشاه إسماعيل، وبعد موقعة (موهاكس) طلب شارل الخامس علناً من السلطان (طهماسب) التدخل. وفي عام 1578 جاءت المفاتحات هذه المرة من إسبانيا - فيليب الثاني - من أجل عقد تحالف ضد العثمانيين. ومن جانبه قام الشاه بإرسال سفراء إلى الباب وإلى الأمراء المسيحيين من أجل تشجيع سياسة الحروب الصليبية. ولكن الجيوش الفارسية لم تقدر على الحصول على انتصار، فتراجعت إلى الحدود في جورجيا وفي أذربيجان⁽¹⁾.

واستغل الشاه عباس عام 1602، انشغال الدولة العثمانية بالحرب ضد النمسا، فهاجم أرمينيا، عندها وجد الباب العالي نفسه مضطراً إلى القتال على الجبهتين، ضد الفرس، وضد النمساويين⁽²⁾ وكان من نتائج هذه الحروب المتعاقبة بين الفرس والأتراك «أن رفعت الخطر التركي عن الغرب»⁽³⁾.

وسليمان الذي قاد أعظم دولة في هذه الحقبة، كان يعرف ما يريد أن يفعله تماماً، بعد أن بدا له المعتقد العالمي واضحاً وجلياً، فهناك الاحتكاك المباشر مع الغرب، في منطقة البلقان، جبهة بودا - فيينا، أي الجبهة النمساوية - المجرية، وهناك جبهة شبه الجزيرة الإيبيرية/المغرب العربي. وبين هاتين المنطقتين يرقد البحر الأبيض المتوسط يرمق، مراقباً، تبدل مواقع القوى على جوانبه. وعلى كلتا الجبهتين: فيينا، إسبانيا، يتوجب على سليمان مواجهة نفس العدو: الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي جمعت بين جوانحها إسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا، والأراضي المنخفضة، ومستعمرات ما وراء البحار. وظلت المشكلة الكبرى التي تواجه سليمان في هذه الحقبة، هي محاولة التوفيق بين متابعة الضغط باستمرار على جبهة المتوسط: جبهة فيينا،

(1) راجع: د. جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، ص 259.

(2) راجع: قيس جواد الغزاوي، الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مركز دراسات الإسلام والعالم، فلوريدا، الدار العربية للعلوم، بيروت 1994، ص 16.

(3) روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 554.

وإسبانيا، لإضعاف الغرب في أقوى مواقعه، واسترجاع مواقع المسلمين في الأندلس، ومواجهة أخطار التطويق البرتغالي البحري من الخلف، أو لمقاومة أخطار الاستنزاف الصفوي من البر الشرقي. فكثيراً ما اضطر العثمانيون للانشاء عن حروبهم في أوروبا، والانكفاء لمواجهة منافسة البرتغاليين، بعد أن اشتدت مزاحمتهم لهم في الأسواق التجارية الشرقية، أو ليعالجوا الأزمات الاقتصادية التي كانت تشتد حلقاتهم حولها، على أثر الجفاف والقحط الذي كان ينزل ببعض الولايات العثمانية... وزادت هذه الأزمات عنفاً في السلطنة العثمانية، وفي ولاياتها في إفريقيا الشمالية العربية، من جراء سيطرة البرتغاليين على سواحل القارة الإفريقية، واصطفائهم لحسابهم الخاص، لفترة من الزمن، الذهب الإفريقي، وغير ذلك من محاصيل القارة السوداء، مما أدى إلى هبوط فاضح في الحركة التجارية مع أقطار المغرب العربي، وطرابلس الغرب، ومصر نفسها، كما انخفضت حركة التجارة البحرية بين المرافئ الإفريقية القائمة على الساحل الشرقي لجزيرة العرب. كما نتج عن ذلك كله تناقص فاضح في النقد الذهبي في العالم الإسلامي المتوسطي⁽¹⁾.

وكسياسي كبير، ذي بعد عالمي، أخضع سليمان القانوني لأغراضه الإستراتيجية تحالفاته الأوروبية والكونية، فأقام أوثق العلاقات الممكنة مع (فرنسا) عدوة الإمبراطورية الرومانية المقدس، ومنافسها الرئيسي على صعيد أوروبا. وقدم العون لكل الاتجاهات المذهبية المنشقة عن الكنيسة الكاثوليكية. «فأرادت السلطنة أن تستفيد من هذه الحروب المذهبية القائمة بين الكاثوليك والبروتستانت، وسعت لبناء علاقات مميزة مع البروتستانت، مبينةً لهم التشابه بين البروتستانتية والإسلام»⁽²⁾ ومستثمرة سياسة التسامح الديني التي تنتهجها على أرضها، واحترامها حقوق الطوائف المسيحية في شرق البلقان، حتى أن الأقاليم التي وقعت تحت حكمها: رودس، واليونان، والبلقان «فضّلت هذا الحكم على أحوالها السابقة في ظل حكم الفرسان (الداوية) أو

(1) المصدر السابق، ص 554.

(2) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص 22.

البيزنطيين، أو البنادقة، حتى بلاد المجر نفسها، ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن ما كان عليه أيام آل هابسبورغ⁽¹⁾. وسمح العثمانيون لأتباع كالفن بحرية التبشير في هنغاريا... بينما بقيت الأجزاء الخارجة عن نفوذهم تابعة للكاتوليك. وقد وعد السلطان سليمان الأمراء اللوثرين في البلاد المنخفضة، وغيرها من المناطق الخاضعة للإسبان، بالدعم العسكري، بسبب مقاومتهم البابا والإمبراطور (الهابسبورغي). بالمقابل دعا البروتستانت الفرنسيين (= الهوغونوت)، في النصف الثاني من القرن السادس عشر، فرنسا إلى العودة إلى سياسة التحالف مع العثمانيين. من هنا ردة الفعل القوية عند العثمانيين لدى سماعهم نبأ مجزرة (سان برتولمي) ضد البروتستانت عام 1572⁽²⁾، وفي رسائلهم إلى الزعماء اللوثرين في فلاندر وغيرها من المقاطعات الإسبانية، شجب السلاطين العثمانيون الكاثوليكية، التي ترفض الإسلام كما ترفض اللوثرية. ودعوا زعماء الانتفاضة الهولندية لتنسيق أعمالهم مع مسلمي إسبانيا ومع كل الذين يقاتلون البابوية⁽³⁾ وقدم إلى الباب العالي موفدون من بلدان أوروبا الغربية، فزار إسطنبول في كانون الثاني عام 1563 (سابيرو كورسو) قائد الحركة المعادية للإقطاع في كورسيكا، كما قدم إلى هناك، على نحو دائم ممثلو (الهوغونوت) والمعمدانيون الهولنديون، والكالفينيون والبروتستانت، وأقام الباب العالي مع كل تلك الحركات علاقات مودة وصداقة، ووعدهم بالمساعدة في نضالهم ضد البابوية وكل من يخضع له... وكانت التجمعات المنشقة، تعمل بدورها على مساعدة الباب العالي، فقدمت المعلومات للعثمانيين، وتعاونت مع أعوانهم في معظم الأحيان⁽⁴⁾.

إذا كان العثمانيون سيغالون البرتغاليين في البحار الشرقية: البحر

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، محمد علي أبو دره، الجزء الثالث، المجلد السابع، ص 113.

(2) راجع: د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، مصدر سابق، ص 82.

(3) إيفانوف، الفتح العثماني للبلاد العربية، مصدر سابق، ص 49.

(4) المصدر السابق، ص 288.

الأحمر، بحر العرب، الخليج العربي، المحيط الهندي، ففي ساحة العالم المتوسطي سيجابهون، في القرن السادس عشر، الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بقيادة شارل الخامس، ومن بعده ابنه فيليب الثاني ملك إسبانيا.

لن ينتظر سليمان كثيراً بعد تتويجه ليعلن سياسته الهجومية تجاه أوروبا الوسطى والغربية. ففي عام 1521 سيستولي على جزيرة (رودس) من فرسان القديس يوحنا، بقايا الصليبيين، والتي تتحكم بعقدة مواصلات شرق المتوسط، وتشكل حلقة اتصال بين إسطنبول ومصر. وستدخل جيوشه في نفس العام بلغراد، وهي على مفترق طريق متقدم للدفاع عن المجر، سيفتح بعدها سلسلة حملات سيتوجها بحصار فيينا عام 1529. فيما كان ملك فرنسا (فرنسوا الأول) وشارل الخامس منشغلين بمحاربة بعضهما، والبابا ليون العاشر منشغلاً بمقاومة الراهب الألماني (لوثر)⁽¹⁾.

وفي غمرة استعدادات سليمان عام 1525 للعمل الحاسم للسيطرة على المجر، تأتيه رسائل الاستعطاف والرجاء الممزوجة بالخضوع من والدة ملك فرنسا الأسير تخاطب فيها سليمان قائلة: «أتضرع إليك أيها الإمبراطور العظيم لإظهار كرمك أن تعيد إليّ ولدي»⁽²⁾. ويرسل ملك فرنسا، من أسره في مدريد، سفيره «يطلب منه بكل تواضع أن يهاجم ملك المجر، أحد حلفاء شارل «ويسترد ما سلبه منه من الشرف في واقعة بافيا»⁽³⁾ ويجيب سليمان بطريقة تُظهر المسافة الشاسعة التي تفصل سمو مكانة سليمان بالمقارنة مع هزلة موقع فرنسوا في السياسة الدولية، إذ يقول: «لقد أرسلت للالتجاء إلى بابي رسالة بيد خادمك (فرانجيانى)، وقد أوضح لي كيف اجتاح العدو بلادك، وأنت أسير... وقد وضع كل قولك هذا أمام أقدام عرشي ملجأً للعالم. وقد وصل إلى فهمي الإمبراطوري بكل تفاصيله، وقد درسته

(1) راجع: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة التقدم بشارع محمد علي، مصر، ط 3، 1912، ص 80.

(2) هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص 118.

(3) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص 84.

بكامله»^{(1)(*)}.

وهكذا نشأ التقارب العثماني - الفرنسي في خضم الصراع الفرنسي والعثماني ضد الإمبراطور شارل «فالصداقة الفرنسية - العثمانية ليست سوى نتائج واقع الحال، بمعنى أن كل واحدة من هاتين الدولتين كانت تمارس هيمنتها داخل دائرتها الخاصة (أوروبا الغربية بالنسبة لفرنسا وأوروبا الشرقية بالنسبة للإمبراطورية العثمانية)، وذلك دون خطر حصول صدام بينهما نظراً لانعدام التجاور، وتهديد أي منهما لمصالح الآخر، وكان لكل منهما نفس العدو»⁽²⁾.

في أبريل عام 1526 يسير سليمان بجيش قوامه مائة ألف رجل، ومسلح بثلاثمائة مدفع إلى وسط أوروبا، سيحث البابا كلمنت السابع الحكام المسيحيين ليهبوا لمساعدة المجر، وسينصح (لوثر)، بالمقابل، الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم «لأن من الواضح أن الأتراك زوار من عند الله»⁽³⁾ أما الفرنسيون الذين كانوا قد انهزموا في بافيا، فقد كان من حقهم، أن يأملوا في انتصار المسلمين⁽⁴⁾.

ستحصل مدفعية سليمان ورماة الإنكشارية في (موهاكس) نخبة جيوش أوروبا المحتشدة تحت الراية الصليبية، ومعهم ملك المجر الشاب لويس العاشر وحاشيته من النبلاء، ويدخل سليمان (بودا) عاصمة المجر، ويعين أمير ترنسلفانيا ملكاً عليها، فاتحاً الطريق للهجوم على النمسا وألمانيا، واعدداً بأنه سينزع من شارل الخامس السيادة على الغرب⁽⁵⁾.

(1) هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص 119.

(*) خط التشديد دائماً من المؤلف.

(2) جاك فريمو، فرنسا والإسلام، من نابليون إلى ميتران، هاشم صالح، الأرض للنشر، ط 1، 1991، ص 19.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، مصدر سابق، ص 103.

(4) راجع: د. جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، مصدر سابق، ص 235.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، مصدر سابق، ص 104.

وعندما نشبت الحرب بين (فرديناند) ملك النمسا (= أخ الإمبراطور) و(جان زابولي) أمير ترانسلفانيا على تاج المجر (البروتستانتية) ناصر سليمان زابولي، واحتل بودا، للمرة الثانية، عام 1529 ليحتفل بتتويج حليفه. وحاصر فيينا، ثم رفع الحصار عنها لقلّة المؤن ولقدوم الشتاء⁽¹⁾، واضطر (شارل الخامس) أن يهادن البروتستانت حتى عام 1552، ويوقف القرارات الصادرة بحقهم... لمواجهة الخطر العثماني. وبقيت غزوات العثمانيين السنوية كالسيف المسلط على النمسا حتى حصار عام 1683⁽²⁾.

وقد كتب للخط الفاصل الذي رُسم في هنغاريا أن يبقى قرناً ونصف القرن، جاعلاً من فيينا حدود الغرب المسيحي، وبودا حد الشرق المسلم «وقد مثل حصار فيينا عام 1529، والفشل في دخولها حدثاً فاصلاً في تاريخ العثمانيين، وللمواجهة مع أوروبا، فكان ذروة عظمة الإمبراطورية العثمانية وأعلى نقطة في انتصاراتها»⁽³⁾.

وبنهاية سنة 1536 يحصل سليمان على أقاليم جديدة في أوروبا، ويسيطر سلطانه على الساحل الجنوبي للمتوسط، وعلى الحافة الشرقية، وفقد المسيحيون رودس وبحر إيجه، والحافة الشرقية للأدرياتيكي، ولم يقبل سليمان الصلح مع (فرديناند) عام (1533) إلا بعد تسليمه مفاتيح مدينة (جران)، ولم يتردد (فرديناند) في إبداء كل آيات الخضوع، فعند التسليم الرمزي لمدينة جران (= كران) بتقديم مفاتيحها، خاطب سليمان على لسان ممثله: «إن الملك فرديناند، ولدكم يعد (= يعتبر) كل ما يعود له، كأنه عائد لكم، ويعدكم أباً له، ولم يعلم برغبتكم بامتلاك هنغاريا، ولو كان عرف ذلك لما أثار حرباً من أجلها مطلقاً»⁽⁴⁾.

(1) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص 452.

(2) روسلان موسيني، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، ص 552.

(3) محمد خليفة، الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان، مركز دراسات العالم الإسلامي،

فلوريد، ط 1، 1994، ص 24.

(4) هارولد لامب، سليمان القانوني، مصدر سابق، ص 171.

وفي أثناء انهماك سليمان، في إطار استراتيجيته العالمية، في تهيئة أساطيله في السويس للانقضاض على الأساطيل البرتغالية في بحار العرب والمحيط الهندي، وفي طرد الصفويين من بغداد. وكان الصفويين قد أعدموا كبار فقهاء السنة، ودمروا مزاراتهم بما فيها مزار (أبي حنيفة النعمان، وعبد القادر الجيلاني) وعرقلوا مرور التجارة بين الشرق الأقصى وأوروبا، في وقت حولت فيه سيطرة البرتغاليين على البحار الشرقية إلى حصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب عبر البلاد العربية⁽¹⁾. أثناء انهماك سليمان في الشرق، سيعين (خير الدين بربروسا) قائداً عاماً للأسطول عام (1533) ليشاغل بدوره أوروبا في المتوسط. فبعد أن نفذ الأسطول الإسباني بضع هجمات فاشلة على مدن شرشال والخميس... لحقت بهم هزيمة كبرى مع الأسطول العثماني عند الشواطئ اليونانية الغربية فقد «تمكن خير الدين من تحطيم الأسطول المشترك لإسبانيا والبندقية، فغير ذلك الانتصار الباهر ميزان القوى في البحر، وأدى إلى بسط السيادة العثمانية على الجزء الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط».

وجاء تنامي القوة العثمانية في البحر والبر، ل يتيح لها أن تلعب دوراً خطيراً في ميزان القوى الأوروبي، وهو ما مكّن فرنسا من البروز كدولة قومية خلال القرن السادس عشر، فالأسطول التركي في غرب المتوسط، كان يحمي جناح فرنسا الجنوبي، ضد أي هجوم يشنه أعداؤها، مما أتاح لملوكها تركيز قوتهم في الشمال، وتأمين حدود فرنسا القومية⁽²⁾.

في عام 1535 - 1536، ستتوصل فرنسا والدولة العليا إلى اتفاق يشتركان فيه بهجوم مشترك على إيطاليا: العثمانيون بحراً من الجنوب والفرنسيون برّاً من الشمال. فتنتقل الدولة العليا وجهتها من الجبهة النمساوية إلى بلاد نابولي،

(1) راجع: المصدر السابق، ص 113 - 114.

(2) راجع: قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص 18، راجع أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص 94.

وصقلية، وإسبانيا. وتدخل إيطاليا من جهة إقليم بيمونت شمال إيطاليا⁽¹⁾.

نفذ سليمان الجزء المتعلق به، فنزل (بربروسا) جنوب إيطاليا في ميناء أوترانت، وتوغلت الجيوش العثمانية في إيطاليا، متقدمة نحو الجبال، ونحو نابولي، ولكن للمرة الثانية، غدر الحليف المتقلب فرنسوا الأول بالسلطان سليمان. فبدل أن تغزو فرنسا (ميلان) وقّعت هدنة مع شارل، فوجد سليمان نفسه وحيداً في مواجهة الإمبراطورية، والبندقية، والبابوية، فراجع الجيش العثماني.

ولقد اقترن الاتفاق العسكري الفرنسي - العثماني، باتفاق اقتصادي سُمي فيما بعد (الامتيازات الأجنبية). فقد منح سليمان من موقعه القوي والمقتدر امتيازات (لرعايا ملك فرنسا النازلين بأراضي الممالك المحروسة) وبمقتضى هذه الامتيازات، منح سليمان أساطيل الفرنسيين التجارية امتيازات إعفاء من الرسوم، وسمح للعثمانيين بالتجارة في جميع الممتلكات الفرنسية. واحتفظوا في الوقت نفسه بامتيازات للأجانب: فكنائسهم، ومحاكمهم، وكل قضاياهم الشخصية تكون مستثناة على الأراضي في الدولة العثمانية، وجعلت من الأخيرة أول منفذ لفرنسا فيما وراء البحار⁽²⁾ وكانت هذه الامتيازات لفرنسا، تهدف في ذلك الحين، إلى تغطية اتفاقها العسكري مع سليمان، وكمكافأة من جانب سليمان، يقدمها إلى (حليفه) فرنسوا الأول، لتقوية موقعه السياسي الأوروبي، ولتشجيع الفرنسيين للاتجار مع الدولة العثمانية، بعد محاولة الحصار البرتغالي لتجارها الشرقية، ولقد اعتادت الدولة العثمانية - كما يقول أحمد عبد الرحيم مصطفى - استغلال ثرواتها لمساندة حلفائها الأوروبيين «فالامتيازات الممنوحة لفرنسا في عامي 1536 و1569 ثم للهولنديين والإنجليز

(1) راجع: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص 96. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص 97، وراجع هارولد لامب، سليمان القانوني، ص 200.

(2) راجع: هارولد لامب، سليمان القانوني، ص 199. راجع أيضاً: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ص 92 - 94.

كانت تستهدف دعم هذه الدول خلال نضالها ضد بابا روما وهابسبورغ النمسا⁽¹⁾.

هذه الامتيازات التي أتت على شكل منحة، أو هبة سلطانية، ومن موقع القوة والاقتدار الأكيدين، ستتطور مع الوقت لتحول إلى قيود تعطي الشرعية للتدخل الخارجي، والاختراق الخارجي لجسم الدولة العثمانية^(*). وقد تعززت هذه (الامتيازات) التي أعطيت عام 1536 لفرنسا الأول، عندما يضيف إليها سليمان بنوداً جديدة في عهد هنري الثاني ابن فرانسوا عام 1553، هي الأخطر من كل ما سبق، إذ سيسمح سليمان بظهور تقليد جديد، أتاح لسفير فرنسا المسيو (جبريل درامون) زيارة بيت المقدس، ومقابلة الرهبان والقساوسة، وجعل جميع الكاثوليك المستوطنين بأراضي الدولة العلية تحت حماية فرنسا⁽²⁾.

فعلى الرغم من التفوق العثماني الظاهر، والاعتراف الفرنسي بهذا التفوق والتسديد والتميز، وبفضل العثمانيين على ملوك فرنسا: فرنسوا، هنري الثاني. تذهب الأمور على غير ما هو متوقع: «فبدل أن يحصل السلطان سليمان من فرنسا على امتيازات لقاء ما قدمه من خدمات لها، حدث العكس، عندما وافق على منحها امتيازات تجارية كان لها آثار سياسية وقانونية، سميت منذ ذلك الوقت بـ (نظام الامتيازات الأجنبية)»⁽³⁾.

مرة أخرى، في عام 1540، سيرضى سليمان أن يتعاون مع فرنسوا

(1) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص 94.

(*) يُرجع (برنار لويس) أصل الامتيازات «إلى عصر استعلاء إسلامي وليس أوروبي، وعندما كانت الدول الإسلامية في أوج قوتها وكان التجار الأوروبيون وممثلوهم الدبلوماسيون يُعدون كعنصر أدنى درجة» لغة السياسة في الإسلام، ترجمة: إبراهيم شتا، دار قرطبة، 1993، ص 131.

(2) راجع: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص 42. راجع أيضاً: قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية... ص 20.

(3) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية... ص 86.

الأول، في حملة أخرى على شارل، وعرض على الملك الفرنسي أن لا صلح مع شارل إلا عند تسليم جنوه، وميلان، وفلاندر إلى فرنسا... فرد شارل على ذلك بتكوين حلف يضم الإمبراطورية والبندقية والبابا وفرديناند ملك النمسا، فعانت البندقية وطأة الهجوم العثماني، وفقدت ممتلكاتها في بحر إيجه، وشاطئ دلماسيا، واضطرت لتوقيع صلح منفرد مع العثمانيين عام 1540⁽¹⁾.

وفي عام 1542، وبعد أن فشلت حملة شارل على الجزائر، سمح فرنسوا للأسطول العثماني بقيادة (بربروسا) بقضاء الشتاء في ميناء (طولون) حيث باع الجنود العثمانيون عبيداً مسيحيين، تحت أنظار فرنسا، واشترط (بربروسا) أن لا يسمع، طوال فترة إقامته في طولون، أصوات أجراس الكنائس.

استمر التعاون العثماني - الفرنسي حتى بعد وفاة فرنسوا الأول عام 1547 حيث استمر ابنه هنري الثاني على نهج والده، ومع استمرار اعترافه بفضل العثمانيين على فرنسا، وفي ضعف موقعه أمام موقع سليمان، وهذا ما يظهر جلياً في رسالته إلى السلطان سليمان إذ يقول: «لم يبق لدى فرنسا أي أمل بالمساعدة من أي مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم، حيث إن حضرة سلطان العالم، قد قدم من قبل مساعدات لمرات عديدة. إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سوعدت بمقدار من النقود والبضاعة، وبخاصة أن هذه المساعدة تعتبر لا شيء بالنسبة إلى سلطان العالم»⁽²⁾.

وبناء على معاهدة 1553 حاربت العمارة البحرية للدولتين معاً في إيطاليا، وفتحوا جزيرة كورسيكا وصقلية، لكن لوقوع خلاف بين قائدي العمارتين، لم يستمر احتلالهما... وكانت هذه آخر مرة حارب فيها العثمانيون والفرنسيون كتفاً لكتف حتى حرب القرم⁽³⁾.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، مصدر سابق، ص 107.

(2) مصدر سابق.

(3) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية... ص 24.

2 - ميول جديدة للسياسة العثمانية في نهاية القرن السادس عشر:

مات السلطان سليمان القانوني عام 1566 الذي لخص عهده مكامن القوة والازدهار والانضباطية في النظام العثماني، كما لخص، في الوقت نفسه، نقاط الضعف وميول التدهور في الزمن اللاحق. والتي ستغذي التراجع العثماني لاحقاً. مات مخلفاً وراءه دولة مترامية الأطراف، تتعدى مسؤولياتها عالم المتوسط القديم، لتنسج ساسة كونية، إحدى أهدافها البيئة حماية (ديار الإسلام) من الهند حتى غرب المتوسط، تركز على ثلاثمائة وخمسين ألف من الجند النظاميين، مع ما يرادفهم من قوات نظامية، وبين أيديهم ثلاثمائة مدفع، وثلاثمائة سفينة حربية تجوب بحار المتوسط، والأسود، والأحمر والخليج العربي، والمحيط الهندي⁽¹⁾.

لقد ترك وراءه أكثر الدول استقراراً وأمناً، وثراء وغنى، وأكثرها قابلية للركود، وترك وراءه فوق كل هذا خططاً استراتيجية، تستهدف بشكل رئيسي التوسع على حساب طرفي الإمبراطورية الرومانية المقدسة: جبهة النمسا، وضرب الطرف الإسباني واسترجاع مواقع المسلمين في الأندلس. مما يساهم في ضرب محاولة تطويق الإسلام من البحار الشرقية، المنطلقة من شبه الجزيرة الإيبيرية؛ مما سيقبل أوراق اللعب السياسية العالمية رأساً على عقب.

إن هذه القوة الهائلة، وتلك السطوة الإمبراطورية العظيمة بكل المقاييس لو قبض على خيوطها المتشابكة بلا نهاية، رجل واحد لأهله هذا التدخل، السلبي أو الإيجابي، في مسار أحداث التاريخ. لكن من سوء الأقدار، وقد ساهم في ذلك غياب مؤسسات حقيقية لضبط الشرعية، أن استقر الأمر بعد سليمان إلى أقل أبنائه موهبة، إلى السكير سليم الثاني (1566 - 1574)، بعد أن استطاعت شبكة الدسائس التي حاكتها زوجة سليمان روسلانة، الجارية ذات الأصل الروسي^(*) أن تدفع سليمان لقتل ولديه الأكثر مهارةً وجدارةً،

(1) المصدر السابق، ص 108.

(*) البعض يقول: إن أصلها يهودي.

واللذين يتحليان بنفس مواهب والدهما وقدراته وطموحته: مصطفى وبايزيد.

وهكذا، استقر الأمر لسليم، الذي قضى أيامه في جناح الحريم، بحثاً عن المملذات، تاركاً أمر تدبير شؤون السلطنة إلى رجال توارث بعضهم عن إدارة أبيه، وربما كانت هذه فضيلته الوحيدة، التي سمحت باستمرارية معينة لتقاليد الدولة العثمانية، ولعمل مؤسساتها الموروثة.

عند استلام هذا السلطان، كان الخيار الذي يواجه العثمانيين هو السؤال عن اتجاه الضربة التي يجب أن يوجهوها، إلى إسبانيا أو إلى الشرق. وكان خيار توجيه الضربة لإسبانيا، هو خيار الدولة العثمانية منذ محمد الفاتح، تبعاً لرأي (رنكه)، ولقد لخص هذا المؤرخ الألماني الموقف، عند استلام سليم الثاني: «كانت الوجهة الأولى منهما ضد إسبانيا، عدوة الإسلام الأولى، والوجهة الثانية شطر قبرص الجزيرة التي كانت تابعة للبندقية فأهمّل السلطان الأولى، رغم ما كان يقدر لتلك الحملة من النجاح الأكيد، من جراء ثورة كان المسلمون قد أضرموها هناك»(*) واختار الثانية التي جرّت عليه المتاعب⁽¹⁾.

لقد هباً سليمان كل الظروف للانقضاض على إسبانيا، ولو هوجمت إسبانيا لما تحركت فرنسا، وإنكلترا وهما على خصومة معها، ولما تجرأت البندقية على التدخل وهي دولة جوار، وتربطها مصالح اقتصادية جدية مع العثمانيين تجعل منهم في خندق واحد ضد البرتغاليين، الذين قضوا على دورهم الوسيط في تجارة الشرق الأقصى. وكان من المجدي بالنسبة لسليم أخذ تلك الظروف كلها بعين الاعتبار. لكن سليم ضرب بكل تلك الاعتبارات

(1) محمد جميل بيهم، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، دار النشر بدون، 1957، ص 118.

(*) هؤلاء المسلمون الذين طالب (سرفانتس) صاحب (دون كيشوت) بطردهم خوفاً من ارتفاع نسبة مواليدهم. راجع: ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص 99.

المنطقية والسياسية، كما ضرب بكل خيارات والده، وانقضّ على قبرص التابعة للبندقية، ليدفع هذه الأخيرة في أحضان إسبانيا والبابوية.

وحتى في ديوان السلطان، في بلاط سليم الثاني نفسه، لم يكن هناك اتفاق حول هذا الخيار: فكانت هناك مجموعة بزعامة الصدر الأعظم (محمد سوقولو) وقفت مع الخطة (الأندلسية)، وأصرّت على تركيز الجهود في الغرب، والتحالف مع الحركات المناهضة للكاثوليكية، واحترام حياد البلدان التي تنتهج سياسة حيادية، أو حذرة تجاه الدولة العلية، ولا سيما البندقية، أما المجموعة الثانية فلم يراعوا شعبية الخيار (الأندلسي)، فكانوا يعتبرون أنه يجب البدء بالتخلص من العدو الأضعف في الشرق، ثم التفكير بعد ذلك بفتح إسبانيا، وتزعم سليم الثاني تلك السياسة «الساذجة القصيرة النظر» على حد تعبير بروديل. ويقف معه مربّي السلطان سر عسكر مصطفى باشا، وقابودان باشا بيالي صهر سليم الثاني. وأخيراً رئيس المخابرات العثمانية في أوروبا (ميكاس) واسمه الأصلي يوسف ناسي «ذلك اليهودي العظيم» على حد تعبير بروديل⁽¹⁾.

ولوجود هذا الانقسام في (البلاط)، بدت السياسة العثمانية قلقاً مترددةً وجلة، تفتقد وحدة الإرادة والعزم. فهم تابعوا تقديم المساعدة لانتفاضة كورسو، والبروتستانت، وحركة الأيقونيين في هولندا، وللمسلمين في غرناطة تهيئة للانتفاضة المنتظرة. وكان سليم الثاني يدعو أعيان الأندلس، وبكوات فلاندر وغيرها من الولايات الإسبانية لتدعيم التحالف اللوثيري الإسلامي، وتنسيق مواقفهم لتنظيم هجوم عام على البابوية، إلا أنه في نصائحه الشفوية، كان يدعوهم إلى عمليات دفاعية⁽²⁾. أما مجموعة محمد سوقولو، فقد ارتأت أنه لا بد من القتال، وبأسرع ما يمكن ضد الإسبان. وسيعين (سوقولو) (علج علي) بكلمربك، على الجزائر، في إفريقيا العربية، بسبب حماسه

(1) راجع: إيفانوف، الفتح العثماني للبلاد العربية، مصدر سابق، ص 242.

(2) راجع: المصدر السابق، ص 239.

(للخطة الأندلسية)، وأمره بتهيئة الظروف للهجوم المرتقب⁽¹⁾ وفي ليلة عيد الميلاد عام 1568 قام المغاربة بالانتفاضة في غرناطة، فأيدها (علج علي) فوراً، وأرسل أربعين مركباً محملاً بالسلاح والمتطوعين، التي حرمتها عواصف الشتاء من الوصول. فيكرر المحاولة عام 1569، فلا يصل منها سوى ستة مراكب تحمل العتاد والرجال. كانت أثناءها (مدريد) تعيش ذعراً من احتمال وصول القوات النظامية العثمانية، وأعلن المسؤولون الإسبان، أثناء حوارهم مع البابا «أنه إذا حصل تدخل من جانب العثمانيين، فإن إسبانيا قد تسقط في أيدي المسلمين»⁽²⁾. ولكن الأمور كانت تجري في العاصمة العثمانية على غير هذا الاتجاه. إذ مدد سليم الثاني، في شباط 1568، الهدنة مع النمسا حليفة إسبانيا، والتي كانت تجمعهما، توأماً إمبراطورية واحدة، وانسحبت الجيوش العثمانية نحو الشرق، واحداً تلو الآخر، أرسل أحدها عام 1569 إلى اليمن، وأرسل جيش آخر لتنفيذ حملة الدون، بهدف وصل الدون بالفلوغا، وشن الهجوم على الروس لاسترجاع استراخان وقازان. وحتى تستكمل المأساة فصولها، ستغرق الدولة العلية في صراع مع البندقية عام 1569 من أجل قبرص. فتورط العثمانيون في حروب الشرق إبان أدق ظروف الانتفاضة الأندلسية في الغرب.

في عام 1569، وانتفاضة غرناطة على أشدها، قام عملاء اليهودي (ميكاس)^(*) رئيس الاستخبارات العثمانية بإحراق ترسانة عسكرية في البندقية، وانتشرت حملات الاعتقال (للبنادقة) في أرجاء السلطنة. وأعلن العثمانيون حقهم التاريخي في قبرص وطالبوا البنادقة بالتخلي عن قبرص، التي كانت

(1) راجع: المصدر السابق، ص 240.

(2) المصدر السابق، ص 241.

(*) يعلل إيفانوف موقف (ميكاس) المعادي للبندقية، لاحتجاز حكامها ثروة ابنة أحد المصرفيين اليهود، التي هي زوجته، وبأن ميكاس، كان يطمح لتأسيس مستعمرة يهودية في قبرص. راجع الفتح العثماني للبلاد العربية، ص 242. راجع أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني... ص 146.

تعد أئمن ممتلكاتهم، إذ تنتج القمح والقطن والزيت والسكر والملح⁽¹⁾ مما أجبر البندقية، بعد أن كانت مترددة، على دخول (الحلف المقدس)، الذي يضم إسبانيا وجنوة، ونابولي والدويلات الألمانية ودوقية سافوا، وتوسكانيا، والذي كان قد دعا إليه البابا بيوس الخامس «الذي كاد أن يقضي كمداً لكون العثمانيين سادة الموقف في المتوسط»⁽²⁾.

وفي 7 تشرين الأول 1571، جرت في الخليج (ليبانو)، أهم المعارك البحرية في التاريخ فصلاً، تمكن فيها الأسطول الموحد (للحلف المقدس) من تحطيم الأسطول العثماني المكون من (230) سفينة بقيادة قابودان باشا بيالي، قتل ثلاثون ألف عثماني، وثمانية آلاف من الفرنجة، وكان من بين جرحاهم (سرفانتس) الذي فقد ذراعه اليسرى، والذي رأى «أن برنتانو بددت ظن الشعوب الأوروبية بأن القوة العثمانية لا تقهر»⁽³⁾.

سيترتب على هزيمة (ليبانو) أجلاً - وإن لم يكن عاجلاً - نتائج تتعلق بالموقع الإستراتيجي للبحرية العثمانية، وبخطها الهجومي، حيث ستفقد البحرية العثمانية زمام المبادرة في المتوسط، بل وفي البحار جميعاً.

صحيح أن (علج علي) استطاع إنقاذ سفنه الحربية من المعركة، ومُنح لقاء ذلك قابودان باشا، وجهاز سفنه برمّة مسلحين بالبنادق والمدفعية «فأفسد على المسيحيين استثمار تفوقهم العسكري التقني السابق»⁽⁴⁾ وإن الصدر الأعظم (محمد صوقولو) جهز في الشتاء (250) سفينة جديدة. وستوقع البندقية بعد سنة من المعركة على معاهدة، تقبل فيها بشروط المهزوم، فتتخلى عن

(1) راجع روبر شوشو، المعارك البحرية الكبرى في التاريخ، عبد الرحمن حميده، دار طلاس، دمشق ط 1، 1988، ص 53.

(2) المصدر السابق، ص 52.

(3) إيفانوف، الفتح العثماني... ص 245. يقول عمر إسكندري وسليم حسن: «وغاية ما أثرت (هذه المعركة) أنها برهنت لدى أوروبا بأنه يمكن التغلب على الترك»: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى ما قبل الوقت الحاضر. ص 42.

(4) روسلان موسيني، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 549.

قبرص، وتدفع غرامة حربية ثلاثمائة ألف دوكا تعويضاً لما تكبده السلطان من نفقات في فتح الجزيرة⁽¹⁾. إلا أن كل هذا لن يخفي، في العمق، هول الهزيمة ونتائجها الخطيرة، ليس على مصير الأندلس، وإسبانيا، وعالم المتوسط، وعلى مصير المعركة مع روسيا على استراخان، وقازان، وعلى المعركة الدائرة في البحار الهندية والعربية في الشرق، بل إن (برنتانو) ستعكس نهائياً مرحلة الصعود العثماني - الإسلامي، والطابع الهجومي للاستراتيجية العثمانية في المتوسط، وفي العالم المتوسطي. وأنهت نهائياً فكرة الهجوم العثماني على إسبانيا، وعلى خطط استرداد الأندلس، وأسست لنوع من التوازن الاستراتيجي النسبي بين أوروبا المسيحية، وعالم الإسلام، ذلك التوازن الذي سيبدأ من نهاية القرن السادس عشر، وينتهي مع نهاية القرن السابع عشر وسيكون لهزيمة العثمانيين أمام (فيينا) عام 1683 إشعاراً بنهاية هذا التوازن، وبداية التفوق الأوروبي ومنذ تلك المعركة ولفترة طويلة لم تعد القوات البحرية التي تبحث عن بعضها تجوب المتوسط. واتفق الخصمان الكبيران، العثماني والإسباني على وضع حد لهذا الصراع... وتم عقد هدنة عام 1577، سيجددونها مرات عدة حتى عام 1593، وحده البابا استمر في التفكير بالحملات الصليبية⁽²⁾.

فكانت (ليبانو) كما أكد بروديل «خاتمة لمركب النقص الحقيقي عند المسيحيين، وخاتمة للتفوق العثماني».

3 - مقارنات أوضاعهما التاريخية:

حتى نهاية القرن السادس عشر، لا أحد يستطيع التكهن بالمال الأخير

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص 145. راجع أيضاً: د.

جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية، ص 99.

(2) يقول إيفانوف عن هذه الحرب: «أصبحت حداً فاصلاً في تاريخ الحروب البحرية في

العالم، على أساسه قام، منذ ذلك الوقت، توازن عسكري بين الشرق والغرب استمر حتى عام 1983» الفتح العثماني، ص 245.

للمغالبة القائمة بين المسلمين بقيادة العثمانيين وأوروبا المسيحية بقيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبعدها إسبانيا التي ستولى الموقف القيادي لأوروبا في النصف الثاني من القرن. فلقد تم للعثمانيين ترتيب البيت الإسلامي، وتقوية موقعهم في المتوسط، جنوباً عندما ضموا بلاد المغرب العربي، وشرقاً عندما ضموا بلاد الشام ومصر، وشمالاً بحر إيجه، والطرف الشرقي للأدرياتيكي، واخترقوا أوروبا من وسطها حتى أصبحت روما، وفيينا تحت التهديد الدائم، وفرضوا الجزية على البندقية سيدة البحر المتوسط سابقاً، وعلى إمبراطورية هابسبورغ سيدة أوروبا برآ.

وعلى الرغم من الاختراق البرتغالي لبحار المسلمين شرقاً، بعد اكتشافهم طريق الرجاء الصالح، إلا أن العثمانيين، في النهاية، فرضوا حمايتهم على البحر الأحمر، وحموا الأراضي المقدسة، وشواطئ شبه الجزيرة العربية، وكانت لهم السيطرة على البر حتى نهاية القرن الثامن عشر، وإن فقدوا السيطرة منذ نهاية القرن السادس عشر على الخطوط التجارية البحرية الشرقية، وضعفت سيطرتهم في المتوسط.

حتى على مستوى بناء الدولة وعملها، وعلى المستوى الثقافي والذهني، وعلى صعيد البناء الاجتماعي، فقد كان التميز لصالح ديار الإسلام في أكثر المجالات اتساعاً وشمولاً: تنظيم المدرسة العثمانية، مؤسسات التعليم، نزاهة القضاء وسرعة إجراءاته وبساطتها، الأخلاق العامة، إدارة الحكم والنظام والأمن والاستقرار، البناء والحرفة، والميزان التجاري. وإن بدأت أوروبا تسجل نجاحاتها في بعض النقاط (الاستراتيجية): العلم، البحث التجريبي، اتساع دائرة الرؤية الجغرافية، والفلك والإحياء الثقافي، صناعة السفن، فن الملاحة والذهنية الاقتصادية.

مع النصف الثاني للقرن السادس عشر، ستعزز أوروبا موقعها بالتفافها حول العالم العربي - الإسلامي، لتستحوذ على ثمرات التجارة الشرقية، وذهب وسكر وقهوة أمريكا، تلك القارة التي اكتشفوها، مصادفة، وهم في طريقهم إلى الهند.

ولقد بدأت أوروبا، توأ، طريقها الانتقالي العسير والمضني من (العصور الوسطى إلى العصور الحديثة)، من الفوضى الشاملة إلى الدولة - الأمة: هناك فرنسا، إنجلترا، أما هولندا فلن يتأكد استقلالها إلا مع القرن السابع عشر، وإيطاليا، وألمانيا فلا تزال وحدتهما القومية في علم الغيب. لكن أوروبا ستتقل من مواقع الدفاع الهجوم في وجه الإسلامي الشامل الذي بدأ مع الفتح العربي - الإسلامي في القرن الثامن، واستكملة العثمانيون في القرن الخامس عشر والسادس عشر، إلى موقع الهجوم الاستراتيجي الذي ستكون الحملة الفرنسية 1798 فاتحته الكبرى على البر، بعد أن كانوا يسجلون تقدمهم إلى ساعتها على الماء.

التفوق الأوروبي لم يكن سوى ميول من الصعب استقصاء نتائجها حتى ونحن في منتصف القرن السابع عشر، ولم يكن بالإمكان التكهن بما ستؤول إليه الأمور، انطلاقاً من أي نقطة زمنية في هذه الحقبة. التفوق الأوروبي سيتأكد فقط في القرن الثامن عشر، وخاصة في نهايته مع اكتشاف الطاقة البخارية واستعمالها الواسع لاحقاً.

نعم هناك تجري تحولات على بعض السلوكيات الاجتماعية، تراكم للثروات، بواذر غنى مع توسع السوق التي غدت عالمية، تحسين في التقنيات الحرفية، الانفتاح على التفكير العقلاني الرياضي، يوازيه تعزيز النزعة التجريبية، اتساع دائرة المعارف بالتاريخ: دراسة مقارنة للأديان، للجغرافيا البشرية. إلا أن هذه المكتسبات ظلت جزراً صغيرة يغمرها المحيط الهمجي الجائم على الثقافة والاجتماع الأوروبيين. لم يكتسب بها الغرب تفوقه الحاسم. كانت هناك مباراة قائمة، تغالب، تقدم يحصل هناك، وتراجع يحصل هنا، ولن تدق ساعة التفوق الأوروبي الحقيقي إلا مع اكتشاف طاقة البخار. هذا التفوق الذي لن تستخدمه أوروبا لتعزيز التكامل والتعاون الإنسانيين، بل ستستغله وتحتكره لتهميش بقية شعوب الأرض، بقوة الحديد والنار والعلم والأسطورة والإيديولوجيا، وفي مقدمة كل ذلك التقنية والآلة، تغلف سطوتها العالمية بمعايير إيديولوجية تجعل من أوروبا مركز العالم.

المفاعيل الفكرية للنهضة لم تشكل بعد الوعي الاجتماعي السائد. لم تكن سوى إشارة (بعدية) لما سيحصل لاحقاً. إنها نزعة ثقافية وليست حركة اجتماعية، على عكس ما كان عليه (الإصلاح الديني) الذي ظهر كحركة شعبية واسعة التأثير. والإنسانيون «إنهم ليسوا بالحقيقة طلائع البحث العلمي الحر الحديث، بل هم معلمون دنيويون مغترون»⁽¹⁾. وكان تأثير النهضة أوسع من تأثير النزعة الإنسانية، التي اقتصر تأثيرها على المفكرين الباحثين، واستعاصر الحركة الإنسانية، في ألمانيا ودول الشمال، وإنكلترا - كما يقول راسل - الإصلاح الديني⁽²⁾. الإصلاح الديني الذي سيفتح حقبة الحرب الأهلية المذهبية لمئة وخمسين عاماً، سيكون له وحده طابع شعبي واسع، أما حركة النهضة فلم تكن في زمنها سوى مركز اهتمام حلقة المثقفين والارستقراطية. وكما يقول فروم «لم يكن عصر النهضة حضارة أصحاب المحلات الصغيرة والبرجوازية الصغيرة، بل حضارة النبلاء والأثرياء». ويذهب (فروم) إلى أن عصر النهضة مثل تطوراً نسبياً للرأسمالية التجارية، وتكونت مجتمعات حكمت فيها جماعة صغيرة من الأفراد الأثرياء والأقوياء، «وشكلت القاعدة الاجتماعية للفلاسفة والفنانين، الذين عبروا عن هذه الحضارة، بالمقابل كان عصر الإصلاح الديني، أساساً ديانة الطبقة الوسطى والحضرية، والطبقات الدنيا والفلاحين»⁽³⁾.

وحركة الإصلاح الديني إذا عايناها من زاوية ما حاربت ضده، فلم تُعط إلا التعصب وإنكار الآخر وهما الوقود الحقيقية لحروب أهلية مذهبية ستدوم حتى 1648. أما النتائج النهائية لهذا الإصلاح فلم تكن نتاجاً منطقياً لقراءة

(1) د. كرين بريتون، منشأ الفكر الحديث، الفن العالمي الحديث، دمشق، بدون تاريخ، ص 31.

(2) برتراند راسل، حكمة الغرب، الجزء الثاني، زكريا إبراهيم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1983، ص 321.

(3) إريك فروم، الخوف من الحرية، مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1972، ص 46، راجع هيربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي، ص 41.

مفاهيمه الضمنية، بقدر ما كانت خلاصة دروس الحرب المذهبية الأوروبية التي دامت أكثر من مائة وخمسين عاماً. وأجبرت الجميع على البحث عن سبيل لتجنب مآسي الحروب الدينية التي أنهكت أوروبا، عندها، في منتصف القرن السابع عشر، سيجري البحث لإقرار مبدأ إزاحة الدين عن السياسة، والمقدس عن الدولة، وسيتم، تحت تهديد السلاح وانفتاح دم الحرب الأهلية، الإقرار (بعقد اجتماعي جديد) يجنب الناس الحرب، من خلال القبول بمبدأ جواز الاختلاف، وبإمكانية التعايش، وواجب أن تلقى الدولة القبول الاجتماعي⁽¹⁾.

نفس القاعدة تنطبق على (الإحياء والنهضة) التي لم تكن في زمنها إلا صورة لسلوك الترف والبدخ الدنيويين، لبلاطات حكام فلورنسا، والبندقية، وجنوه، ولروما البابوية. أو لنزعة ثقافية لحلقة ضيقة من المثقفين، لم يكن لها تأثيرها الفاعل على الوعي الاجتماعي السائد، إلا لاحقاً، عندما استخلص الناس في القرون التالية بين سطورها ما يريدون هم أن يستخلصوه، فعززت، في بعض جوانبها، المشاعر الدنيوية، واستخلص منها أسلوبان في الإدراك: إما اتباع نظرة موضوعية فظة (كلبية) على طريقة مكيافيلي (1469 - 1527)، نظرة كلبية بالقدر الذي كان فيه الواقع نفسه يبدو كلبياً (واقع مدن - دول إيطاليا القرن السادس عشر)، أو اتباع أسلوب غروتوس، وهوبز، وبودان، في الإدراك، في نهاية القرن السادس عشر، الذين أبرزوا فكرة (العقد الاجتماعي) الليوتوبي المتخيل، يربط الأفراد بالدولة، وتستقى منه الحقوق والشريعة، وسيكون لهذه الفكرة، مع فكرة الحق الطبيعي دورها الأكبر في القرن الثامن عشر⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ص 48.

(2) يذكر أرنست بلوخ أنه: «بعد مذبحه السان بارتيلمي الفظيعة، حيث مر السيف على جميع الهوغنوت في باريس، أعقبها حركة مقاومة، وإن تيودور روبنيز الناطق باسمها سيعلم بعد المذبحة: أن الرعايا غير ملزمين بطاعة غير مشروطة للسلطة» فلسفة عصر النهضة، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة بيروت 1980، ص 123.

وقائع الحياة، والتوازنات الاجتماعية، وخبرة الصراعات الاجتماعية، وتقدم العلم والذهنيات، هو الذي سيقود إلى قراءات جديدة للنهضة والإصلاح الديني في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وليس حقيقياً أن عصر النهضة وعصر الإصلاح عملاً بتناسق في سبيل أهداف واحدة «فالكالفاني (بروتستانتى من أتباع كالفن) الصالح، عليه أن يخشى فنان عصر النهضة الذي ينحت التماثيل نقلاً عن النماذج العارية، ويعيش بطيش وإسراف... كما أن لوثر يكره إيراسموس، وهو شعور متبادل بينهما»⁽¹⁾.

بالتوازي مع هذا، تم التقدم في بعض الميادين العلمية وأهمها اكتشاف نظام مركزية الشمس على يد كوبرنيكوس عام 1543، وظهر نوع من الثقة بالإنسان وقدراته، مع عودة إلى فيثاغورث وأفلاطون والرأي القائل بأن العالم مبني على أساس نموذج رياضي، ولكن، على الرغم من النهضة والإصلاح الديني «إلا أن هذا لم يعتق الناس من مختلف ضروب الخرافة القديمة، واكتسب التنجيم شعبية واسعة... أما السحر فكان الاعتقاد به واسعاً بدوره... وأحرق مئات الأبرياء ذوي الأطوار الغريبة وهم أحياء»⁽²⁾.

من الخطأ التوهم، مثلما هو شائع، أن الحياة الأوروبية قد ارتقت كثيراً عن (همجية) القرون الوسطى، في القرن السادس عشر، لمجرد التذكير بظاهرة عصر النهضة والإصلاح الديني. أو أنها ارتفعت عن الحياة الاجتماعية والثقافية السائدة في ديار الإسلام، بل إن بعض جوانب تلك الحياة تميل لصالح بلاد الإسلام: العثمانيون، والفرس، وإمبراطورية المغول في دلهي.

فعلى مستوى القوة المجردة العسكرية، ظل العثمانيون خطراً جدياً على أوروبا بأكملها حتى نهاية القرن السابع عشر، وإن شهدت أوروبا بعض التقدم، أو السبق في التقنية العسكرية في عدة مجالات: صناعة السفن،

(1) راجع: أرنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة، مصدر سابق، ص 121 - 122.

(2) د. كرين بريتون، منشأ الفكر الحديث، مصدر سابق، ص 19.

الملاحة، والدراية الجغرافية، ورسم الخرائط، وستكون لهم اليد الأولى في مياه المتوسط في القرن السابع عشر بعد أن سيطروا قبلاً في القرن السادس عشر على ملاحة البحار الشرقية. ويذكرنا هودجسون، بأن الفترة ما بين (1500 - 1800) كانت الفترة التي لعب فيها العالم الإسلامي أوسع أدواره في تاريخ الحضارة العالمية علماً أن أقل من خمس سكان العالم كانوا مسلمين... فالدولة الإسلامية شكلت عالماً دبلوماسياً شاسعاً جداً... والقوى البحرية الأوروبية المتوسطية، في القرن السادس عشر لم تفعل شيئاً لرعزته⁽¹⁾.

وقد تساءل لوثر بصيغة التأييد: «يقال إنه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأتراك»⁽²⁾ فكانت الدولة العثمانية من ناحية التنظيم الداخلي لمؤسساتها، أو من جهة علاقتها بالسكان، ورعايتها للأمن، والاستقرار، واحترامها للتعددية الاثنية والدينية، وقوننة الأنظمة، وترتيب أمور القضاء أفضل حالاً من أوروبا، ومن المسلم به - كما يقول عبد الرحيم مصطفى: «إن الإمبراطورية العثمانية كانت طيلة القرن الذي تلا سقوط القسطنطينية تحظى بحكم أفضل مما كانت تزرع تحته معظم أوروبا المسيحية، كما كانت أكثر من أوروبا رخاءاً، ورعاياها - مسلمين ومسيحيين - كانوا يتمتعون بقسط من الحرية الشخصية، ومن نتاج كدهم يفوق ذلك الذي كان ينعم به رعايا الدول الأوروبية»⁽³⁾.

ومن المقارنات التي يعقدها ديورانت لحياة الدولة والسياسة الأوروبية والعثمانية: «يفترض وجود ديمقراطية مباشرة في الحكومة العثمانية... فإن الطريق إلى الرفعة والمكانة العالية، فيما عد السلطنة، كان مفتوحاً أمام جميع المسلمين... وحيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل هذا

(1) برتراند راسل، حكمة الغرب، الجزء الثاني، ص 28.

(2) ألبرت حوراني، مارشال هودجسون و«مغامرة الإسلام» الاجتهاد، بيروت، العددان السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة، ص 113.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص 125.

المستوى العالي من المقدرة والكفاية لأمد طويل، كما كان الحال في العرش العثماني⁽¹⁾.

ولقد تم في عهد سليمان القانوني التأكيد على حماية الأرواح والأموال وشرف الأشخاص، وأعاد تنظيم الإدارة وحذر الموظفين من الافتتات على حقوق الرعايا وجعل الكفاءة أساساً للتعيين والترقية، وأصدر القوانين التي حددت عمل الحكومة، وحقوق وواجبات الحكام والمحكومين⁽²⁾.

ومن الخطأ اعتبار السلطان (طاغية) فهو بالإضافة إلى تقيده بالشرعية، فإن جوانب كثيرة من الحياة العثمانية كانت مستقلة في الواقع عن السلطة المركزية، كالطوائف (الملل) والحرف، والمؤسسات، والجماعات الدينية، إلى غير ذلك من الهيئات التي شكلت (البنيان التحتي) التعاوني للمجتمع العثماني⁽³⁾.

ويرجح ديورانت أن تكون البيروقراطية العثمانية، أقدر ما وجد من نوعها في القرن السادس عشر، وأليست تلك البيروقراطية، من أمن الاستمرارية لأداء هذه الدولة حتى بعد انتهاء عصر السلاطين العشر العظام بموت سليمان 1566؟!

ولقد لاحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم العثمانية، وسرعة البت في المحاكمات، وكما اعتقد مؤرخ إنكليزي: إن سير القضاء في عهد السلاطين العثمانيين الأولين كان أفضل منه في أية بقعة في أوروبا... وإن الجرائم كانت أندر⁽⁴⁾.

وفي مجال التعليم وتنظيمه، فبالإضافة إلى المدرسة السلطانية

(1) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص 69.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص 115.

(3) راجع: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص 89.

(4) المصدر السابق، ص 109.

المخصصة لتخريج النخب البيروقراطية، والإنكشارية، التي تعد، في مستوى التعليم الذي تقدمه، أفضل من أية جامعة في أوروبا كما يقول إيفانوف. فقد قضى سليمان القانوني وقتاً طويلاً في إعادة تنظيم المدارس العامة وتحسينها، وتنافس الوزراء وسادتهم السلاطين في إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقة بالمساجد، ونعم المدرسون في هذه المدارس - كما يقول ديورانت - بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم في العالم المسيحي اللاتيني. وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن، والآداب، والرياضيات والفلسفة... وساروا جنباً إلى جنب مع الغرب في الهندسة وفن الحكم⁽¹⁾. ويحدثنا ديورانت أنه في القرن السادس عشر، وحتى القرن السابع عشر، سادت حياة عقلية نشيطة... وربما كانت نسبة معرفة الكتابة والقراءة في القرن السابع عشر أعلى منها في العالم الأوروبي⁽²⁾ وأنشأ سليمان كثيراً من المدارس والكليات وأجرى التعديلات في نظام العلماء ورتبهم وإعفائهم من الضرائب، وسهل عمليات انتقال ضياعهم من الأب إلى الابن، ومنع مصادرتها، وبذلك «أصبحت أرستقراطية العلم هي الأرستقراطية الوحيدة في الدولة»⁽³⁾.

وظل العهد العثماني حتى القرن السادس عشر ينتج الروائع في فن البناء كمسجد سليمان الذي وضع تصميمه (سنان) مع عدة مساجد ومبان أخرى، فقد تميز عهد سليمان بعظمة المباني التي زين بها الآستانة وبغداد وقونية ودمشق وغيرها من المدن. وبتشديد المرافق العامة في شتى ربوع الإمبراطورية⁽⁴⁾ ولم تتفوق أية حضارة - كما يقول ديورانت - على الإسلام في صنع التربيعات القرميدية الجميلة، ورسم المنمنمات، والخط، ونسيج السجاد.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص 112.

(2) المصدر السابق، ص 121.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، أندراوس، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص 138.

(4) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص 482.

ولكن في مجال الذهنيات، والحياة العلمية والثقافة العالمية، ندر الابتكار والإبداع، فخضع التأليف النظري لإعادة صياغة نفس القوالب القديمة، فكثرت التصانيف، والشروح «والواقع أن فضيلة العلماء العثمانيين ليست في عمق التفكير وجراته، ولكنها في الذاكرة الجامعة والتطبيق الجلد الصبور»⁽¹⁾. وبقي التأليف التاريخي حياً، يواكب سيرة سلاطين الدولة، أو إخباري لتدوين الحياة اليومية، أو كتب التراجم، أو كتب التاريخ الشامل، فكنا لا نزال نسمع، في القرن السادس عشر، أسماء مؤرخين كبار، مثل: ابن إياس، ومحمد بن طولون، وقطب الدين النهروالي، ومحمد ابن أبي السرور البكري الصديقي، وشهاب الدين أحمد المقري. ولكن ما ينقصهم جميعاً الوعي الكوني، وإدراك التاريخ العالمي، الذي بدأ ينسج خيوطه بتصاعد مع بداية القرن، وظلوا عندما يريدون تأرخة (الغير) الأوروبي، يعتمدون على المعلومات الشفوية، أو الموروثة من التأليف القديم، على الرغم من أن أوروبا أصبحت وراء تخومنا. ولكن أوروبا كلها لا تزال (مسألة خارجية) بالنسبة للمسلمين والعرب، ولم تتحول بعد إلى مسألة داخلية تقض المضاجع. وتفرض نفسها على الوعي وتجبره على أن يجيب على أسئلتها المحيرة، الجدية والمصيرية بنفس الوقت.

وظهرت أسماء لامعة في (الجغرافيا) حاولت أن تسد ثغرة في الجغرافيا البلطمية، المتوارثة، ذات العوالم السبع، وتواكب ما تعلمته أوروبا في غزوها للبحار، فقائد الأسطول العثماني (سيد علي) ألف كتاباً هاماً (المحيط في علم الأفلاك والأبحر)، قدم معلومات جديدة حول البحار والبلدان بما فيها أوروبا، على الرغم من تأثره بالنظرية الجغرافية التقليدية، فعندما يشير إلى أمريكا يقول «إنها غير داخلية في الأقاليم السبعة»⁽²⁾، ومع (بيري رئيس) وهو قائد آخر

(1) د. خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، معهد الأنماء العربي، بيروت، ط 1، 1983، ص 47.

(2) راجع: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 484، راجع أيضاً: د. خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، ص 47.

للأسطول العثماني، تقترب أكثر من الوقائع الجغرافية المكتشفة، قدم لنا وصفاً لشواطئ المتوسط، يتابع بذلك تقاليد الرحالة العرب: الإدريسي، ابن بطوطة... ويجمع معلومات عن الاكتشافات الإسبانية في أمريكا - أثناء استعداده لقتالها - ويرسم عام 1513 خريطة موضوعة على أساس خريطة كولومبس، تمثل الأطلسي مع أمريكا والشواطئ الغربية في أوروبا. وقدم خريطة للسلطان سليمان عام 1529 تمثل اكتشافات البرتغال في أمريكا الجنوبية والوسطى في الأراضي الجديدة، ولكن إنجازها هذا ظل يتيماً، ووضع في طيات الأدراج، ولم يستفد منه أحد⁽¹⁾ وكان الطاقات الخلاقة في الجانب الإسلامي قد استنفدت في نهاية القرن السادس عشر.

سيجري نفس الأمر حين تُجهض محاولة بناء مرصد في نهاية القرن السادس عشر، في عهد مراد الثالث (1574 - 1595)، إذ تأتي الأوامر بتدميره، البعض يُعزوه إلى ثورة العامة⁽²⁾ والبعض يُرجعه إلى أن المفتي (قاضي زاده أفندي) أقنع السلطان بتدمير المرصد⁽³⁾ في وقت بدأ فيه (غاليلو) يحدق في القبة السماوية. ولقد تأخر المسلمون عن أوروبا في نشر (الطباعة الآلية)، فانظروا حتى القرن الثامن عشر بينما أوروبا مارست طباعة الكتب منذ القرن السادس عشر وعلى نطاق واسع. وإن كان ذلك تمّ في ظل رقابة مشددة.

بعد تعميم الطباعة الآلية في أوروبا، ستتشر الثقافة، ويصبح الكتاب أرخص وأكثر اقتناءً، سيعقبها صدور الصحف الإخبارية: في ألمانيا (1505) تصدر صحيفة من ورقة واحدة، وما أن جاء العام 1599 حتى كان هناك 877 نشرة من هذا النوع وكلها غير منتظمة، في عام 1609 ستصدر أول صحيفة أسبوعية منتظمة في (أوغسبورغ)، وأخرى مماثلة في فيينا عام 1610⁽⁴⁾.

(1) راجع: ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص 146.

(2) راجع: ثريا فاروقي، الاجتهاد، العلم والعلماء والدولة، الاجتهاد، العدد الرابع، 1989، ص 192.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص 230.

(4) إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص 275.

وكانت «دولية العلوم والثقافة» تحاول أن تضع نفسها خارج النزاعات وتكافح من أجل الاقتراب إلى الواقع. وهذا كله يشير إلى حقائق المستقبل، فغاليلو في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، سيبشر بقانون الجاذبية، ويضع أسس الفيزياء الرياضية، والطابع الهندسي والكمي للعالم. سيخرج من معطف هذا النموذج: نيوتن، ديكارت، وفلاسفة الأنوار، وأنشتاين، في أزمنة آتية.

هناك نقطة أخرى ستسجل مستقبلياً، كاتجاه للتطور، لصالح أوروبا. فالدولة العثمانية كانت الأكثر غنى في العالم المتوسطي، ميزانيتها ضعفاً ميزانية الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تضم ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، الأراضي المنخفضة. ولكنها، وخلافاً لمعظم الدول الأوروبية التي تبنت سياسة مركنتيلية مركزة اهتمامها على الإنتاج وتصدير البضائع، والتوسع التجاري، ثم يأتي اهتمامها بالاستهلاك. الدولة العثمانية سارت في اتجاه معاكس، فتحت الأسواق على مصراعيها أمام البضائع المستوردة إذ «آمن رجال الدولة العثمانية أن بحبوحه وراحة الشعب تتوقفان على وفرة البضائع الاستهلاكية، بأثمان بخسة في السوق الداخلية، ووفقاً لهذا الاعتقاد أخذ الباب العالي يشجع على الاستيراد ويحد من التصدير بكل الوسائل»⁽¹⁾ وقدم للتجار الأجانب مختلف التسهيلات والامتيازات، أو الإعفاءات الجمركية التي تستنزف الاقتصاد، وتضعف الموقع التفاوضي للحرفي المحلي. وظلت الدولة حتى فترة (الإصلاحات) التي شهدتها القرن التاسع عشر «تمسكةً بنظام طوائف الحرف ومعارضةً للتطورات التي كان يحتمل أن تؤدي إلى بروز الرأسمالية الصناعية»⁽²⁾. فلم تهتم الدولة العلية بالميزان التجاري، قدر اهتمامها بتوفير السلع للسوق الداخلية، وتمسكت بنظام طوائف الحرف، عندما كانت أوروبا تعتمد سياسة (الإنتاج - للتصدير) كوسيلة للوصول إلى المعادن النفيسة: الذهب والفضة، وتشرف دولها على الشؤون التجارية وتأمين الأسواق، وعلى

(1) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص 133.

(2) راجع المصدر السابق، ص 134.

الصناعة ووفرة الإنتاج⁽¹⁾. بينما ركزت الدولة العثمانية على الفلاح والقرية، وليس على التجارة وصناعة التصدير، لاعتقادها الخاطئ أن الأرض، والفلاح هما مصدر موارد الدولة وحسب.

إن تلك السياسة، وهذه الطريقة في الإدارة، لم يتكشف ضررها عندما كانت الدولة العثمانية في عز أيامها، ولكن في المستقبل ستظهر النتائج البائسة، عندها يكون قد فات الأوان. فسياسة لا تعتمد أو لا تركز نفسها لتشجيع الإنتاج المحلي، وتنصرف فقط إلى ضمان الوفاء بحاجات المدن، وخاصة العاصمة بالمؤن، وتستمر في فرض الضرائب الباهظة على المشاريع المحلية، ورسوم على الصادرات أكثر من تلك المفروضة على الواردات، وترك النقل البحري الساحلي يقع في أيد أجنبية، وتعفي الأجانب من الرسوم التي يدفعها الرعايا⁽²⁾. لا يمكن أن تقود هذه السياسة في ظروف المباراة الكبرى مع أوروبا، إلا إلى تراجع الموقع العثماني. فعندما تطلُّ الأزمة النقدية، وأزمة ارتفاع الأسعار خاصة بعد عام 1580، مع تدفق ذهب المكسيك والبيرو، ويطلُّ معها تبدل الوضع الجديد للنظام الاقتصادي مع تراكم الثروات من التجارة الشرقية على أوروبا وتدفق الذهب والفضة من غرب المتوسط المكتشف توأ، سيستطيع الأوروبيون كبح جماح هذا التطور واستيعابه واستخدامه في تطوير نظامهم الاقتصادي، في حين عجز المسلمون عن ذلك، مما يشير إلى قتامة المستقبل رغم غنى الحاضر.

لقد تمت التضحية بالمستقبل، وبالطموحات المشروعة للفرد، لصالح فكرة عن التوازن الاجتماعي، لن تخدم في النهاية سوى الركود.

برع العرب، منذ زمن بعيد، في إنشاء الخزانات والسدود للسقاية.

(1) شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص 89.

(2) ز. ي. هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث في الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص 14. راجع أيضاً: قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص 34.

واستعملوا وسائل متعددة لرفع المياه من القنوات والأنهار: كالشادوف ومسمار أرخميدس، واستعملوا أيضاً (طاقة) الطاحونة الهوائية لإدارة رحى طحن الحبوب. وأهم الأدوات الزراعية لديهم: المحراث البدائي، والرفش ذو الشفرات المثلثة، والجاروف والمنجل، والشوكة والمدقة والمعزقة، والنورج لدرس الحبوب⁽¹⁾. ولقد بقيت تلك الأدوات عندهم مستعملة في الزراعة، بدون تغيير تقريباً، حتى القرن الثامن عشر. وأوروبا لم تكن أكثر تقدماً في هذا المجال، وكما تقول سميليا نساكيا: «يلاحظ أن الزراعة الأوروبية التي تأخرت في تطوير التقنية القديمة، وكانت في بعض النواحي، على مستوى واحد مع الزراعة في الشرق الأوسط لم تشهد تغييرات جذرية إلا مع تطور الرأسمالية»⁽²⁾. ولقد لاحظ (ديورانت) أن أساليب الزراعة وعلومها في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر «كانت على الأقل تضارع ما كان منها لدى الغرب»⁽³⁾. وإن كانت أوروبا قد بدأت في نقل بعض الزراعات الاستوائية، واحتكاكها بأساليب زراعية جديدة في العوالم المكتشفة.

حافظ العرب - المسلمون على تفوقهم التقني في مجالات حرفية متعددة: مثل صناعة الخزف، والفخار، والزجاج والنسيج. «ويذكر أن نهضة صناعة الحرير في المدن السورية تعود إلى نهاية القرن السادس عشر. وتشير المعطيات التاريخية إلى الانتشار السريع لإنتاج منسوجات الحرير في ضواحي دمشق وحلب في مطلع القرن السابع عشر»⁽⁴⁾. وحسب ما جاء في «قاموس الصناعات الشامية» لمحمد سعيد القاسمي، فقد بقيت الشام تحافظ على /404/ حرفة حتى القرن التاسع عشر. مما يدل على اختصاص متطور، خاصة إذا عرفنا أن في (روما) القديمة /150/ حرفة، وفي مصر في العهد

(1) راجع: لويس بونغ، العرب وأوروبا، ميشيل أزرق، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1979، ص 63 - 64.

(2) إيرينا سميليا نساكيا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، يوسف خطار الحلو، الفارابي، بيروت 1989، ص 81.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، بدران، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص 108.

(4) إيرينا سميليا نساكيا، البنى الاقتصادية... مصدر سابق، ص 206.

البيزنطي 180 حرفة، وفي المدن الروسية في القرن السادس عشر 210 حرف، وفي استكهولم في القرن الخامس عشر /100/ حرفة، وفي نورمبرغ في القرن السابع عشر /150/ حرفة⁽¹⁾. إلا أن أوروبا قد بدأت تتفوق في عدة تقنيات جديدة ستمهد لنوع من السبق التقني الأوروبي على ديار الإسلام. فبالإضافة لاختراعهم لساعات الحائط ذات الآلية المعقدة، والطباعة الآلية، والنظارات، واستخدامهم (طواحين المياه) في صناعاتهم النسيجية، والمعدنية، والخشبية⁽²⁾ فإنهم أدخلوا عدة أدوات صناعية وأصناف جديدة، كالمكبس لضغط الأجواخ بدلاً من ضغط الدم، واختراع الراهب (وليم لي) عام 1589 للآلة الناسخة التي زادت سرعة النسيج من 10 - 15 ضعفاً⁽³⁾. وفي عام 1540، وبدلاً من النزول إلى عمق عدة أمتار في المناجم، بدأوا بالنزول إلى (25) وأحياناً خمسين متراً، مما اضطرروا معه إلى فتح خنادق ودهاليز وسرايب تحت الماء.

وباشروا في صنع بكرات ضخمة لرفع الأثقال الكبيرة، تأتيتها الحركة من محرك يدور على عجلة... وكرات ضخمة مجهزة بمطرقة تتحرك بقوة الماء لتكسير فلزات المعادن، ومصاهر ضخمة للحديد تعمل على فحم الحطب... ومنذ عام 1540 أنشئت مصاهر حديد علو الواحد منها /30/ قدماً، ويعرض /20/ قدماً⁽⁴⁾. وفي عام 1533، أضاف (جوهان جورج) إلى عجلة الغزل - التي كانت تُدار باليد - ذراعاً (= دوسيه) تدار بواسطة القدم، فأطلقت يد الغزل، وضاعفت الإنتاج⁽⁵⁾.

ومن الخطأ الظن - كما قلنا سابقاً - أن الحياة السياسية أو الاجتماعية في أوروبا المسيحية كانت أفضل حالاً مما هي عليه في ديار الإسلام، وفي الدولة العثمانية. فلقد سادت أوروبا منذ القرن السادس عشر ظاهرة الحكم

(1) المصدر السابق، ص 186.

(2) راجع: شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مصدر سابق، ص 117.

(3) روسلان موسيني، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص 134.

(4) المصدر السابق، ص 135 - 136.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص 183.

المطلق، فكانت إيطاليا وألمانيا مقسمتين إلى أرقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية، وفي إسبانيا جَللت ملكية فيليب الاستبدادية، سطوة محكمة التفتيش الرهيبية، ولم تكن روسيا أحسن حالاً، ولم يصل العرش الإنكليزي إلى مثل قوته آنذاك، حتى إذا بلغنا بداية القرن السابع عشر ستبلغ الملكية الاستبدادية الفرنسية ذروة مجدها. وكانت أوروبا في هذه الحقبة أبعد ما تكون عن التسامح، أو احترام الخلاف في الرأي أو المذهب. فلم يكن اضطهاد المسلمين في إسبانيا والبرتغال، وتصفية وجودهم كبشر ودين سوى فصل مُخزٍ مُمهد، للحروب الدينية داخل الجسد المسيحي التي ستبدأ في بداية القرن السادس عشر ولن تنتهي إلا مع النصف الثاني للقرن السابع عشر. وفي الوقت الذي كانت فيه الحروب الدينية المرعبة تحصد أوروبا: فرنسا، الأراضي المنخفضة، النمسا، إسبانيا إنكلترا «تمتع المسيحيون في العالم الإسلامي بتسامح ديني ما كان حاكم مسيحي ليحلم بمنحه للمسلمين في أي بلد مسيحي»⁽¹⁾.

وذهب (صمويل بيس) في يومياته إلى أن معظم المجر استسلم للأتراك لأن البلاد نعمت في ظل الحكم العثماني بحرية دينية أكبر مما نعمت به في ظل الأباطرة الكاثوليك. ويشير توماس أرنولد أن الكالفينيين في المجر وترنسلفانيا... آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع تحت قبضة آل هابسبورغ المتعصبة، وإن البروتستانت في سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك⁽²⁾.

ويقول فيشر، بنفس المعنى: «الكثير من بروتستانت ترنسلفانيا والمجر فضل العيش تحت لواء الهلال على أن يقعوا في قبضة الجزويت. وكان هناك ترجيح للأتراك من سجية التسامح الديني، وأكثر معاكسة للنمساويين من اضطهادهم بروتستانت بوهيميا»⁽³⁾.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، محمد علي أبو رده، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص 136.

(2) المصدر السابق، ص 137.

(3) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي، ص 374.

ويخبرنا لوثر (1483 - 1566): «سمعت بعض الناس، على الأراضي الألمانية، يرغب بمجيء العثمانيين وحكمهم»⁽¹⁾ وانتشرت الرغبة بالحياة تحت حكم العثمانيين بين السكان الأرثوذكس، وخاصة في أوكرانيا، وفي عدد كبير من بلدان حوض المتوسط، كما يشير إلى ذلك إيفانوف.

وكان رافضو الإيمان بالثالوث الأقدس والطوباويون والحركات المناهضة للإقطاع عامة، في القرن السادس عشر، كل هؤلاء يطالبون بمجيء العثمانيين.

وقد تميز القرن السادس عشر أيضاً بظاهرة نزوح الجماهير الأوروبية إلى الإسلام، ولقد أكد (بروديل) أن المسيحيين المجاورين للبلدان الإسلامية، أصيبوا بدوار الردة، وبدأوا ينتقلون إلى الإسلام أفواجاً أفواجاً طوال القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، ولم يحدث العكس⁽²⁾. ويورد برنارد لويس: «إن حركة اللاجئين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت من الغرب إلى الشرق... فهروب اليهود الإسبان إلى تركيا معروف للجميع»⁽³⁾.

لذا، ليس بالمصادفة، أن ينصح الفيلسوف الطوباوي الاجتماعي (ت. كامبانيلا) بالاقتراء بالمسلمين، وتطبيق عدد من الإصلاحات على النمط العثماني. وكان التطلع إلى إعادة بناء المجتمع وفق النموذج العثماني برز واضحاً في مشاريع البيرغاتي، ول. تسوكرلو، وغيرهما من الطوباويين الإيطاليين في القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر⁽⁴⁾. وهكذا نجد أن سياسة الطرفين، الإسلامي والمسيحي، تجاه الأقليات الدينية والمذهبية، سيكون لها نتائج متعاكسة: «فعندما انتهى الحكم العثماني في أوروبا، كانت

(1) عن إيفانوف، الفتح العثماني للبلاد العربية، ص 48.

(2) راجع المصدر السابق، ص 273.

(3) برنارد لويس، الحرب والسياسة، تراث الإسلام، قسم أول، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهير السهموري، عالم المعرفة، الكويت، ص 286.

(4) راجع إيفانوف، الفتح العثماني... مصدر سابق، ص 47.

الأمم المسيحية، التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون، لا تزال هناك. بالمقابل، في إسبانيا وصقلية لم يبق فيهما اليوم مسلمون أو ناطقون بالعربية»⁽¹⁾.

ستدفع أوروبا ثمناً باهظاً لتعصبها المذهبي، وللحروب المذهبية التي قادها إليها هذا التعصب، ولولا الهجرات الجماعية لقسم من سكانها إلى ما وراء البحار: إلى أمريكا - شمالها، وجنوبها - لكان الثمن أغلى، والمصير مختلف.

أثناء تلك الحروب الطائفية الأوروبية التي دامت مائة وخمسين عاماً ستضرب البغضاء المجتمعات الأوروبية، وستذهب دعوات المثقفين، أمثال الفيلسوف (ليبنتز) لتوجيه تلك العدوات ضد الإسلام سدى. سينتشر الدمار، والقتل في كل مكان. فينال كل هذا من الحياة الأخلاقية، والقانونية (للجماعة الأوروبية). ولن تتوقف تلك الحروب إلا عندما يكتشف الجميع، وبعد أن استنفذت قواهم، أن ليس هناك غلبة لأي طرف في هذه الحروب المجنونة.

في الوقت الذي كان فيه المسيحيون في النواحي الخاضعة للعثمانيين يديرون حياتهم الدينية والذاتية بأمان، يضمنها الشرع العثماني النافذ، كانت أوروبا تغرق في الدم. وسيدفع الألمان قرباناً لهذا الصراع المذهبي، المندمج بطابع اجتماعي وقومي، مثتي عام من التأخر التاريخي كما يشير إلى ذلك فريدريك أنجلس.

الصراع الديني المذهبي لن يقتصر على الكاثوليك والبروتستانت، صار الصراع بين الكالفنيين واللوثريين لا يقل مرارة عن الأول، وانتشرت أشد النعوت والتحريمات، وأشد الأفكار ضغينة وحقداً بين كل الأطراف.

ودخلت «قاموس اللاهوت (التنابذي) ألفاظ كالروث، والنفاية، والحمار، والخنزير، والبغي... ففي عام 1656 اتهم الكاتب الكاثوليكي

(1) برنارد لويس، الحرب والسياسة، مصدر سابق، ص 286 - 287.

(يوهان فاس) اللوثريين بممارسة القتل والسرقة والكذب، والغش والشره والسكر، ومضاجعة المحارم والجريمة، لأن إيمانهم - في زعمه - يبرر لهم كل شيء، ورجح «أن تكون كل امرأة لوثرية مومساً»⁽¹⁾. وبالمقابل، الواعظ اللوثري (أندرياس لانج) عام 1576، كتب بثقة: «إن البابويين (= الكاثوليك) كغيرهم من الترك (كذا!) واليهود والوثنيين خارج نطاق النعمة الإلهية»⁽²⁾.

عندما اضطر الفرقاء لعقد صلح أوغسبورغ في عام 1555 أقرّ هذا الاتفاق، كخطورة تراجعية لصالح البروتستانت، أن يكون لكل أمير حرية في اتباع مذهب لوثر، ويكون رعاياه تابعين له، بمعنى ما أقر بمبدأ «إن الناس على دين ملوكهم». فكم كانت في أوروبا في ذلك الوقت بعيدة عن مناخ الديمقراطية، والتسامح، وبكل الأحوال لن يغير هذا الصلح كثيراً من مناخ الحرب المذهبية، ومن أجواء العداء.

في عام 1566، صار أنطونيو جيسلبري، رئيس محكمة التفتيش، بابا الكنيسة الكاثوليكية، فحرم على الفور إليزابيث (ملكة إنكلترا)، وأحلّ الكاثوليك الإنكليز من الولاء لها، وحض ملك فرنسا شارل التاسع على مواصلة اضطهاد الهوجونوت، وامتدح الأساليب الوحشية التي اتبعها الدوق (إلبا) في الأراضي المنخفضة، وشجع (محكمة التفتيش) على إشعال موقدها. أما البابا سكستوس الخامس (1585 - 1590) ففي عهده انتشرت، فوق أرجاء الريف، الجثث المتأرجحة. وأمر البابا كلمنت الثامن (1592 - 1605) محكمة التفتيش بحرق (جوردانو برونو) شهيد الفلسفة الحديثة، في عام 1600⁽³⁾.

فرنسوا الأول ملك فرنسا، المتذبذب بين مسيحيته ومصلحته، بين الإمبراطور شارل والسلطان سليمان القانوني، بين تأييده للبروتستانت في

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد السابع، ص 192.

(2) المصدر السابق، ص 192.

(3) ولد ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص ص 23 - 29.

الخارج واضطهادهم في الداخل، يوقع مرسوماً، ينص على إعدام (الوحدانيين). خلال أسبوع من هذا المرسوم، أحرقت بضع قرى، في إحداها ثمانمائة رجل وامرأة، وفي مدة شهر أزهرت أرواح ثلاثة آلاف نفس، وهدمت اثنتان وعشرون قرية، ولقيت خمس وعشرون امرأة، لجأن إلى كهف، حتفهن خنقاً بنار أشعلت عند المدخل⁽¹⁾. تابع هنري الثاني ابن فرنسوا اضطهاد البروتستانت، وأرسل من أدين إلى المحرقة، وأعدم من أصر على آرائه البروتستانتية، فتم حرق ستين بروتستانتيّاً خلال ثلاث سنوات⁽²⁾.

واستخدم الإمبراطور شارل الخامس محكمة التفتيش في الأراضي المنخفضة وأصدر تعليمات بشأن البروتستانت: الرجال تقطع رؤوسهم بالسيف، والنساء يُدفن أحياء... فقدّر سفير البندقية في بلاط شارل، أن ثلاثين ألف شخص هلكوا عام 1546 في هذه المذبحة الإمبراطورية الطويلة⁽³⁾.

وفي فجر 24 أغسطس عام 1572 عيد القديس بارتلمي دُقت أجراس قصر العدل في باريس فكانت إشارة البدء المذبحة، التي خطط لها الملك الفرنسي بنفسه. لم تقتصر المذبحة الوحشية على باريس، حيث قُتل حوالي ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الهوجونوت، بل تعدتها إلى الأقاليم... جُرّ الهوجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذُبحوا ذبح الأنعام، وانتزعت الأجنة من بطون أمهاتهم، وهُشموا، وارتكبت المذابح الجنونية في ليون وديمون وأورليان، ودبلو، وتور، وبورج، وأنجيه، وروان، وتولوز، كما يشهد على ذلك فيشر، وديورانت⁽⁴⁾.

فيليب ملك إسبانيا سيقم صلاة شكر للمسيح بمناسبة تلك المذبحة،

- (1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الرابع من المجلد السادس، ص 27.
- (2) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص 53 - 54.
- (3) المصدر السابق، ص ص 245 - 247.
- (4) راجع: هربث فيشر، أصول التاريخ الأوروبي... مصدر سابق، ص 192. وراجع ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص 198 - 199.

وحينما وصل النبا المروع إلى روما، نفخ كردينال اللورين حامله ألف كراون وهو يهتز طرباً، وأضيئت روما كلها، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت أنجلو، وقرعت أجراس الكنائس ابتهاجاً، وحضر غريغوري الثالث عشر وكرادته قداساً مهيباً لشكر الله «على هذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب... وأمر البابا بضرب ميدالية خاصة لهذه الذكرى العزيرة»⁽¹⁾.

في تلك الحقبة من القرن السادس عشر لا يمكننا الحديث عن أي جامع للأخلاق بالسياسة، فكان مكيا فيلي خير معبر عن سياسة هذه الحقبة، فملوك فرنسا الكاثوليك والذابحون للبروتستانت في الداخل، يقدمون المساعدة والعون للإمارات البروتستانتية في ألمانيا نكاية بالإمبراطور شارل الخامس، ولكي يثبت هذه الأخير الفساد المروع للأخلاق السياسية الأوروبية، وهو الكاثوليكي، حامى الكاثوليك والتابع مذهبياً لكنيسة روما، استقدم جنوده مع ظهور أول بادرة خلاف حول المصالح السياسية بينه وبين البابا، ولإذلال هذا الأخير. وهكذا «دفع شارل الخامس جيشاً من المرتزقة اللوثرين شقوا طريقهم داخل مدينة روما واعتقلوا البابا... وأطلقوا العنان طيلة ثمان أيام لقصفهم وقسوتهم: نهب كنائس، قطع رؤوس الرهبان، اغتصاب الراهبات، تحويل كنيسة القديس بطرس إلى اصطبلات»⁽²⁾.

بالمقابل، البابا، وهو رأس الكنيسة الكاثوليكية ستردد في دعم إسبانيا مالياً ضد إنكلترا البروتستانتية خوفاً من ازدياد وزن فيليب الثاني في المعادلات الأوروبية. وسيأخذ نفس الموقف أمام الصراع البروتستانتى الكاثوليكي، في حرب الثلاثين عاماً.

وما دام هذا هو حال الأخلاق والسياسة والاجتماع، والعلاقات بين الجماعات المذهبية في أوروبا، فلا عجب أن تكون العقوبات وطرائق المحاكمة ذات طابع همجي، بدائي ثأري، فقد اعتقد رجال الحكم أنه من

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص 201.

(2) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي... ص 144.

الأفضل، والأقل تكلفة، للحد من الجرائم، فرض عقوبات بالغة الشدة، وتنفيذها علناً أمام الناس.

ستكون عقوبة ضرب العنق بدون ألم امتيازاً اختص به عادة السيدات وأفاضل الرجال. أما الأقل مكانة فيشنقون. والحرق للهراطقة وقتلة الأزواج. والسفاحون يشدون أطرافهم الأربعة إلى أربعة خيول يجري كل منها باتجاه مضاد، حتى يتمزق الجسد أشلاء... وأصدر هنري الثامن ملك إنكلترا عام (1531) قانوناً يحكم فيه بالغلي حياً على من يدس السم لأحد.

وإذا صدقنا (بودان) فإن عدة أفراد أحرقوا لتناولهم اللحم يوم الجمعة... وفي الجرائم الصغرى يُستعمل الجلد، أو قطع إحدى الأيدي أو الأرجل، أو الأذن، أو تجدد الأنف، أو تلفق العين فكانت العقوبات، كما يقول ديورانت، أشد قسوة منها في العصور الوسطى، وهو ما يعكس الفوضى الأخلاقية في ذلك الحين من القرن السادس عشر⁽¹⁾.

فلعل الحكم العام الذي أصدره هودجسون على القرن السادس عشر، أقرب إلى الحقيقة عندما يقول: «برغم الشفافية العامة للغرب المصاحبة للنهضة، كان الأوروبيون الغربيون سياسياً دون الإمبراطورية العثمانية، وكان المسلمون لا يزالون، على الأقل متكافئين معهم تجارياً في معظم أجزاء المعمورة. وثقافياً أيضاً، كان المسلمون في أبهى فترات تألقهم (...). تحولات القرنين السابع عشر والثامن عشر هي التي أسهمت في التمييز القاطع بين الغربيين وبقية البشر»⁽²⁾.

وعلى أساس استشراف تاريخي غاية في الاتساع، أشار (هودجسون)، لو أن زائراً من المريخ أطل على الأرض في القرن السادس عشر، لظن، أن العالم على وشك أن يصبح مسلماً. حيث غدا القسم الغالب من البشرية يعيش تحت ظل الإسلام بعد ضم بيزنطة والهند. ولم تعد سوى كتلتين ثقافيتين تقاومان

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ص 192 - 193.

(2) مارشال هودجسون، التحول الغربي الكبير، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون، والسابع والعشرون، السنة السابعة، 1995، بيروت ص 67 - 68.

الهيمنة الإسلامية: الصين وأوروبا الغربية. وإن البشرية بدت - حتى بعد مئة سنة من النهضة - وكأنها محاصرة من كل الجهات بالإسلام، وكما يقول جعيط: «إسلاماً يحتل مكاناً مركزياً، لأنه الوحيد من بين جميع أقرانه العالميين، الذي عقد علاقات مستمرة مع كل واحد منهم. إلا أن الغرب المائل غرباً، المضغوط على ذاته في وضعية شبه جزيرية، ويتحرك ضمن مساحته، لا يمكن أن يكون في علاقته مع الخارج إلا تحديداً بواسطة الإسلام»⁽¹⁾.

ولعل أوروبا هذه، التي بدأت تتعرف على نفسها في هذا القرن (السادس عشر)، مع إسبانيا والبرتغال، لم تكشف دورها، وتتعرف على ذاتها، وتلاقى مصيرها التاريخي، إلا عبر الجدل مع الآخر، أي عبر المواجهة مع الإسلام «إن ولادة أوروبا للتاريخ قد تمت ولا يمكنها أن تتم إلا عبر الإسلام، في مرحلة أولى تراجع دفاعي، وفي مرحلة ثانية انفجار هجومي»⁽²⁾.

إلا أن أوروبا ستنتظر طويلاً، بعد القرن السادس عشر، لتصل إلى تفوقها المادي والذهني، ولتدرك وتعي هذا التفوق الذي غدا مبرهنًا عليه «هذا الحديث يرجع بشكل تقريبي إلى عام 1750، فمنذ ذلك الحين، تظهر فكرة تأخر شرقي (...) هذا التفوق يفسره الغربيون من زاوية العقل، وهو عقل له تاريخ، بل هو التاريخ نفسه، وهو قد ولد في مصر (حكمة)، وانتقل عبر الإغريق إلى الرومان (مواطنة) ثم عبر العرب (علوم) ووجد أخيراً مستقره النهائي في أوروبا»⁽³⁾.

ومنذ ذاك التاريخ، لم تعد التبريرات (الصلبية) لاقتحام العالم الإسلامي كافية، أو مقنعة لأطراف اللعبة الكونية بعد أن تبدلت مواقع أطرافها. فقد

(1) هشام جعيط، أوروبا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت، ط 1، 1980، ص 127.

(2) المصدر السابق، ص 125.

(3) هنري لورنس، شارل جليسي، جان - كلود تروينكر، الحملة الفرنسية على

مصر: بونايرت في مصر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ط 1، 1995، ص 17

كانت الشعارات الصليبية، والروح الصليبية تناسب علاقة مجتمعات تتسم أطرافها، إلى حد ما بالثديّة، ويستبعد وينكر كل منهم الآخر، ويجد لديه ما يبرر نهب الآخر أو تصفيته، فالمقياس الذي كانت تنظر فيه أوروبا للشرق الإسلامي إنما يخضع لزوج المفاهيم: الإيمان/الكفر. من هنا مبعث نزعة تدمير الآخر، واستبعاده، وتصفيته، يعزّزها لديها الخوف من تدمير الآخر لها، أما الآن، وقد غدا التفوق الغربي مؤكداً، وتأكّدت ضرورة دوام العلاقات بين الشعوب، بعد انخراط جميع الأمم في العلاقات التجارية الكونية، التي باتت أوروبا تدعّم سيادتها عليها تدريجياً، وأصبح الإبقاء على هذه العلاقة، مع توطد السيادة الأوروبية، ضرورة لا راد لها ولا محيص عنها. مما يدفع إلى إيديولوجيا جديدة، تؤكد على ضرورة تلك العلاقات القائمة بين أمم الأرض، الآن، بنفس الوقت الذي تؤكد فيه على الموقع السيد لأوروبا على العلاقات. وأن تطلب تلك الإيديولوجيا من البشر الانتظام في الدرجة المناسبة التي تحتلها كل أمة في سلم الحضارة «فنقد الاستعمار الذي صاغه (التنوير) قد نسف التبريرات الدينية المقدمة من خلال تأسيس أول إمبراطورية استعمارية أوروبية (إسبانيا، البرتغال)، ولتبرير سيطرة جديدة، لا بد من أيديولوجية جديدة ترتبط عضويّاً بأيديولوجيا التنوير»⁽¹⁾.

ستحتل أوروبا - من وجهة نظر أيديولوجيا التنوير - موقع المعلم، المنور، الذي ينشر التنوير على العالم، يحمل راية العقل، ومعيّاره الوحيد للحكم على البشر هي هذه الثنائية: العقل/الجهل. أوروبا/الشرق، حيث تجسد أوروبا لديه، الرهافة والعقل، ويجسد الشرق الاستبداد والجهل. ومن روح تلك المقاييس المبتكرة، سيتم نسج روح الوصاية الأوروبية على الأمم الأخرى، ومنها الإسلام، فيصبح للفتح الغربي مذاقه التنويري الخاص، تتحول فيه أيديولوجيا التنوير - على صعيد العلاقات بين الأمم، إلى أيديولوجيا استبدادية، تبرر الطغيان الأوروبي باسم استنارة العقل، وواجب نشر الاستنارة الغربية.

(1) المصدر السابق، ص 17.

